حلاوة الإيمان

بَيْنَ مَنْ ذَاْقَهَا وَمَنْ فَقَدَهَا

وَسُبُلُ تَحْصِيْلِهَا

تأليف :

أبي عبد الرحمن

خليل بن عبد الله بن أحمد الحمادي

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾

مقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [سورة النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

هل تساءلت يومًا أيها الأخ الكريم عن أعظم لذةٍ يرزقها الله جلَّ جلاله وتقدست أسماؤه لعبده المؤمن وينعم عليه بها؟

إنها لذة الإيمان، تلك النعمة العظيمة التي إذا خالطت بشاشة القلب غمرته بالسكينة والطمأنينة، فتجعله يعيش في حالة من السلام الداخلي لا تهزه تقلبات الدنيا.

إنها اللذة التي تغذي الروح وتنير القلوب، وتمنح الحياة عمقًا لا يُضاهى، فتتحول كل لحظة إلى فرصة للتقرب من الخالق، والانغماس في بحر العبادة والذكر.

إنها اللذة التي تجعل الحياة رحلة سامية نحو الكمال، وتمنح المؤمن هدفًا ساميًا يسعى إليه وهو مرضاة الله جلَّ جلاله.

إنها اللذة التي تملأ القلب بالسكينة والطمأنينة، وتجعل المؤمن يشعر بالأمان والاطمئنان في كل ظرف، فتصبح الدنيا مهما كانت متاعبها مجرد ممر إلى دار الخلود.

إنها اللذة التي تنبع من القرب من الله سبحانه، فتغمر قلب المؤمن شعورًا بأنه محبوب من الله، وأنه يحب ربه حبًا صادقًا.

هذه اللذة لا تضاهيها أي لذة دنيوية، مهما كان نوعها أو شدتها، لأنها لذة لا تنبع من متاع الدنيا الفاني، بل من اتصال القلب بخالقه، ومن استشعار قربه ورحمته.

إنها اللذة التي سعى إليها الصالحون والمخلصون من عباد الله، تلك الفئة التي اجتهدت في العبادة والتقوى، فذاقوا من حلاوة الإيمان ما جعلهم يعيشون في عالمٍ من النور والسكينة، بعيدًا عن أوجاع الدنيا وقلقها.

ولقد كان السلف الصالح يعلمون أنَّ هذه اللذة لا تأتي من المال أو الجاه أو المتاع الزائل، بل هي هبة من الله يُنعم بها على من شاء من عباده، فهي اللذة التي تظل راسخة في القلب، حتى في أحلك الظروف وأشدها.

إنها أعظم لذة يمن الله بها على من شاء من خلقه، فهي جنة الله العاجلة التي يدخلها من شاء من عباده.

فهي التي إذا تخللت القلب وجد العبد لذة العبادة، وأدرك قبح المعصية ومرارتها، وهانت عليه مصائب الدنيا ومكدراتها.

حاله كما قال إبراهيم بن أدهم: "لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا عليه بالسيوف".

وفي حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، "**أَنَّ هِرَقْلَ، قَالَ لَهُ: سَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ، حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ لاَ يَسْخَطُهُ أَحَدٌ**". رواه البخاري.

((**حين تخالط بشاشته القلوب**)) أي أنَّ القلوب المنشرحة إذا سمعت الإيمان، وأصغت إليه بشت له، ورحبت بلقائه، كما يُفعل بالغائب عند اللقاء، ثم إذا حل الإيمان في القلب انكشفت له محاسنه، وتوالت عليه أنواره، حتى يكره أن يعود في الكفر، كما يكره أن يقذف في النار.

وفي رواية بن إسحاق: «**وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلبا فتخرج منه**».

وهذه الجملة توضح حقيقةً مهمةً وهي أن الإيمان حالة روحية ثابتة ودائمة في قلب المؤمن الحق، فإذا سكن الإيمان في القلب واستقر فيه، فإنَّه لا يزول بسهولة بل يظل ملازمًا للمؤمن حتى وفاته بتثبيت الله تعالى له، حتى ولو أصابه ما أصابه، ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «**حَتَّى تَصِيرَ القُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ، أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**». رواه مسلم عن حذيفة.

فقلب المؤمن الذي استنارت جوانبه بنور الإيمان قلب نقي طاهر، ثابت على الحق، لا تؤثر فيه الفتن مهما عظمت أو تتابعت، يُشبَّه بالصفا، أي الحجر الأملس النظيف.

قال القاضي عياض: لشدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل وأن الفتن لم تلصق به ولم تؤثر فيه كالصفا وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء. اهـ

فهذا القلب يحميه الله من تأثير الفتن ما بقيت السماوات والأرض.

ولقد كنت قد ألقيت محاضرة بعنوان: "حلاوة الإيمان"، ثم استعنت بالله عز وجل على جمع مادتها وتوسيعها بما يلزم، وجعلها في رسالةٍ تامة.

سائلاً الله تعالى أن ينفع بها عباده، وأن تكون بذرة خير تُزرع في القلوب، فتغرس فيها جذور الإيمان، وتنمو لتثمر ثمرات من الإيمان الراسخ والعمل الصالح الذي يرضيه سبحانه وتعالى.

ونسأل الله أن يجعلنا من أهل الإيمان وممن يذوق حلاوته، ويتحلى بصفات أهله العاملين به، حتى نكون مؤمنين حقًا.

والحمد لله.

المبحث الأول: حلاوة الإيمان

الإيمان شجرة طيبة، مباركة الأثر وعظيمة النفع، تمتد جذورها في قلب المؤمن وتعلو بفروعها إلى عنان السماء، فتورق بالعطاء والخير.

ثمارها لا تعد ولا تحصى، إذ تنشر الطمأنينة في النفس، وتقوي الصبر على المصاعب، وتضيء دروب الحياة بالأمل واليقين.

وسقي هذه الشجرة المباركة هو وحي الله تعالى، الذي ينزل على قلوب المؤمنين فيغذيها بالإيمان وينميها باليقين، فتثمر خيرًا وصلاحًا في كل زمان ومكان.

قال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [سورة الشورى: ٥٢].

فشجرة الإيمان أصلها ثابت في قلب المؤمن، فهي تنمو بجذور راسخة في أعماق قلبه، لتشكل أساسًا قويًا لحياته، وكلما ثبت الإيمان ورسخ زادت قوته ومتانته، مما يهيئ القلب ليكون منبعًا للخير والنور، فيثمر الأقوال الطيبة والأعمال الصالحة.

وكما أن الشجرة تتجدد باستمرار، فكذلك يجدد الإيمانُ النفوسَ ويزيدها إشراقًا وهداية، حيث يمنحها نورًا يهديها نحو الخير ويضيء لها الطريق.

وبركة الإيمان تحيط بصاحبها، فتملأ حياته سكينة وتنعكس على مجتمعه بالنفع والصلاح.

يدل على ذلك كله قوله جلَّ جلاله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤-٢٦].

وهذه الكلمة الطيبة هي كلمة التوحيد التي هي أصل الإيمان وأساسه.

والإيمانُ زينةُ القلوب وبهاؤه، قال الله عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [سورة الحجرات: ٧].

يقول سبحانه لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له وتزيينه في قلوبكم منكم؛ ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك فآثرتموه ورضيتموه.

وهذا الإيمان له حلاوة وله طعم يجده من وفقه الله لذلك وقليلٌ ما هم.

فقد بوب الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان فقال: "بَابُ حَلاَوَةِ الإِيمَانِ".

وذكر حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **" ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ "**.

والحديث أخرجه مسلم في الإيمان باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان رقم (٤٣).

هذا الحديث، يبيِّن فيه النبي ﷺ ثلاث خصـــال إذا تحققت في المؤمن، فإنَّه يجد حلاوة الإيمان:

محبة الله ورســوله أكثر من كل شيء: وهذه المحبة تتجاوز كل ما ســواها من حب مادي أو دنيوي، فهي علامة على الإخلاص والصدق في الإيمان.

ومحبة المؤمنين من أجل الله: يعني أن المؤمن لا يحب الآخرين إلا من أجل دينهم وصلاحهم، وليس لمصلحة شخصية أو دنيوية.

كرهُ العودةِ إلى الكفر: وهذا الشعور هو غاية في التعلق بالإيمان، حيث يُبغض المؤمن الكفر وأهله، ويكره أن يعود إليه كما يكره أن يُلقى في النار.

فهذه الخصال مجتمعة تشير إلى أن حلاوة الإيمان تتحقق في التعلق بالله سبحانه وتعالى، وفي صفاء القلب وخلوه من الشوائب، وفي إيثار الطاعة وترك المعصية.

وإنما خصَّ هذه الثلاثَ بهذا المعنى؛ لأنَّها لا توجدُ إلا ممَّن تنوَّرَ قلبُه بأنوار الإيمان واليقين، فانكشَفَتْ له محاسنُ تلك الأمور التي أوجَبَتْ له تلك المَحَبَّةَ التي هي حالُ العارفين.

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**».

وبوب عليه النووي فقال: "بَابُ ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا".

هذا الحديث يربط بين حلاوة الإيمان والرِّضاء بالقضاء والقدر؛ إذ يشعر المؤمن بحلاوة الإيمان عندما يرضى بأن الله هو ربه، والإسلام هو دينه، وأن محمدًا ﷺ هو رسوله.

والمقصود بهذا الرضا التسليم التام لله تعالى وقبول مشيئته في كل الأمور.

وطعم الإيمان: أي: حَلاوته ولَذَّته، وهي ما يَجِدُه المؤمِنُ منَ انشراحِ الصَّدرِ والأُنسِ بمَعرفةِ اللهِ تَعالَى ومَحبَّتِه، ومَحبَّةِ رَسولِه ﷺ، ومَعرفةِ نِعمةِ اللهِ عليه باصطِفائه وجَعلِه مُسلِمًا من أُمَّةِ خيرِ المُرسَلينَ.

وروى أبو داود في سننه عَنْ أَبِي حَفْصَةَ قَالَ: قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « **إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ. قَالَ رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ قَالَ اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**».

يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « **مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي** ».

فالإيمان الحقيقي يتطلب اليقين بقضاء الله وقدره، والاطمئنان إلى أن ما كتبه الله للإنسان سيصيبه لا محالة، وأن ما لم يُكتب له لن يصيبه، وهذا اليقين هو الذي يمنح المؤمن طعم السكينة ويذيقَهُ حلاوة الإيمان.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْغَافِرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**ثَلاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ الإِيمَانَ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ، وَلَمْ يُعْطَ الْهَرِمَةَ، وَلا الدَّرِنَةَ، وَلا الشَّرَطَ اللَّئِيمَةَ، وَلا الْمَرِيضَةَ،**

وَلَكِنْ مِنْ أَوْسَطِ أَمْوَالِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهُ، وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِشَرِّهِ، وَزَكَّى عَنْ نَفْسِهِ»، فَقَالَ رَجُلٌ: وَمَا تَزْكِيَةُ الْمَرْءِ عَنْ نَفْسِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **«يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ مَعَهُ حَيْثُمَا كَانَ»**. (١)

وفي هذا الحديث يربط النبي ﷺ طعم الإيمان بثلاثة أفعال عملية:

عبادة الله وحده: وهو التوحيد الخالص لله، والإخلاص في العبادة.

إعطاء الزكاة: وهذه تؤكد طهارة القلب وتنمية الإحساس بالتضامن مع الآخرين، خصوصًا الفقراء.

العمل بنية صادقة: فالمؤمن يعلم أن الله معه أينما كان؛ مطلع عليه وعالمٌ بحاله وبما يأتي ويذر، فيدفعه ذلك إلى فعل الخير مع الإخلاص والصدق في كل ما يأتي ويذر.

أيها الأخ الكريم: إن حلاوة الإيمان تتحقق عندما يكون القلب ممتلئًا بمحبة الله ورسوله ﷺ، وعندما تتجلى هذه المحبة في أفعال المؤمن وأخلاقه.

فالإيمان ليس مجرد اعتقاد في القلب، بل هو سلوك ينعكس على علاقة المؤمن بالله، ومع الناس، ومع كل ما يحدث له في حياته.

ومن تمعَّن في الأحاديث السابقة رأى كيف يشير النبي ﷺ إلى أنَّ هناك مِن عباد الله من يمُنُّ الله عليه فيجد حلاوةً للإيمان؛ لو طلبها أهل الدنيا بكنوز الأرض ما حصلوها ولا وجدوها.

---

(١) رواه الطبراني في مسند الشاميين وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٤٦)

وهذه الحلاوة هي مِن ثمرات الإيمان.

فحلاوة الإيمان تسري في القلب سريان الماء في العود، وتجري جريان الدماء في العروق، فيأنس بها القلب وتطمئن بها النفس، فلا يحس معها المرء بأرَقٍ ولا قلقٍ ولا ضيقٍ، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٥]. وقال جلَّ جلاله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [سورة الحجرات: ٧].

فالإيمان الحقيقي يجلب السعادة والطمأنينة للقلب، ويجعل المؤمن يشعر بالأمان والاطمئنان في الدنيا والآخرة.

وقد يتساءل بعض الناس ما هي حلاوة الإيمان؟ وكيف تكون؟ وبماذا يعرف العبد هذه الحلاوة؟ وما السبل التي توصل إلى نيلها؟

ودونك الجواب على هذه التساؤلات في المباحث القادمة بإذن الله تعالى.

المبحث الثاني: معنى حلاوة الإيمان

إنَّ حلاوة الإيمان هي حالة روحية يختص بها المؤمنون، وهي ثمرة الإيمان الصادق، وتتجلى في استمتاع المؤمن بطاعة ربه، وتحمل المصائب بصدر رحب، وإيثار الآخرة على الدنيا.

بمعنى آخر، المؤمن الحقيقي هو الذي يجد سعادته في طاعة ربه، ويشعر بالرضا والقناعة بما قسمه الله له.

قال النووي: مَعْنَى حَلاَوَةِ الْإِيمَانِ اسْتِلْذَاذُهُ الطَّاعَاتِ وَتَحَمُّلُهُ الْمَشَاقَّ في رضى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِيثَارُ ذَلِكَ عَلَى عَرَضِ الدُّنْيَا. (١)

فصارت حلاوة الإيمان على جانبين عظيمين مهمين من توفرت فيه وجد حلاوة الإيمان، ومن لا فلا:

الأول: التلذذ بالطاعة، ويشمل جانبين: أداء القربات والتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة، والابتعاد عن المعاصي والمنكرات طلبًا لرضا الله وسلامة النفس.

الثاني: تحمل المشاق والمكاره التي تعترض طريقه في دين الله عز وجل، صابرًا ومحتسبًا، يبتغي بذلك مرضاة رب العالمين والفوز بثوابه.

ولا سبيل إلى نيل حلاوة الإيمان إلا بهذين الأمرين، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩].

---

(١) شرح النووي على مسلم (٢/ ١٣).

ثم جمَّل هذا العبد المؤمن هذين الأمرين وزينهما بأمرٍ عظيم؛ وهو أنَّه آثر هذين الأمرين على التلذذ بملذات الدنيا ونعيمها الزائل، ووجد راحته وأنسه وسعادته في هذين الأمرين، فشكر الله له؛ ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ فأورثه لذة يجدها في قلبه وحلاوة يجد طعمها في نفسه، فهو للطاعات والمكاره التي تصيبه في دين الله أشد تلذذًا من تلذذ أهل الدنيا بدنياهم.

فالمؤمن الذي يبغض الدنيا ويقنع بما أتاه منها، ثم هو يتلذذ بالطاعات، ويستعذب المشاق التي تعتريه في طريقه، فهذا هو الذي يذوق حلاوة الإيمان.

قال بعض السلف: "إنَّه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا، حتى أقول إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب".

وقال شيخ الإسلام: "إنَّ في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة".

وقال: "ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري؛ إن رحت فهي معي لا تفارقني، إنَّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة!".

وقال إبراهيم بن أدهم: "لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا عليها بالسيوف".

فأيُّ نعيم هذا الذي يقصده وهو يأكل الكسرة اليابسة ويشرب عليها الماء لا غير، وربما مرَّت عليه أيام ما يجد ما يأكله، **ولكنها حلاوة الإيمان**.

فلو أنَّك سألت أهل الدنيا سؤالًا وهو: **من أنعم الناس وأسعدهم؟**

لقالوا: الملوك وأبناء الملوك.

وذلك لقلة علمهم وسوء فهمهم، ولظنهم أنَّ النعيم لا يكون إلا بعرض الدنيا الزائل، وهذا فهم خاطئ.

وانظر لما ذكره الله سبحانه وتعالى في قصة قارون تفهم ذلك، فقد قال الله سبحانه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [سورة القصص: ٧٩-٨٠].

فقارن بين الفريقين: فريق قال: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، انخدعوا بزخرف الدنيا وفتنتهم زينتها، فلم يروا إلا بهرجها الزائل.

وفريق قال: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾، أدركوا حقيقة الإيمان ووجدوا حلاوته، فاستعذبوا مشاقه ولم يرضوا به بديلاً.

فالفرق بينهما كالفرق بين من أُعمِيت بصيرته فانشغل بمتاعٍ زائلٍ، وبين من أنار الإيمان قلبه، فآثر ما عند الله من النعيم الباقي على الدنيا الفانية.

وهذا واضح لكل ذي عينين، فإنَّ من تعلق قلبه بحب الدنيا لا يرى النعيم إلا في يد من يملكها، ولو كانوا من أسوأ الناس خلقًا.

أما من ملأ حبُ الآخرةِ قلبه، فإنَّه لا يجد النعيم إلا في طاعة الله عز وجل والاقتراب منه.

فأهل الطاعة والعبادة هم أولياء الله الذين انشغلوا بالسعي في مرضات ربهم، وزهدوا في الدنيا ولم ينافسوا عليها، وقنعوا بما يأتيهم منها، فهؤلاء هم أنعم من الملوك وأبناء الملوك، وأسرُّ بالًا وأشرح صدرًا وأهدأ نفسًا، لأنهم متصلون بالله عز وجل في قيامهم وقعودهم ومنامهم ويقظتهم دائمًا مع الله؛ والله معهم.

فهم أنعم الناس في الدنيا والآخرة.

إنها حلاوة الإيمان.

المبحث الثالث: حلاوة الإيمان بالتلذذ بالطاعات

التلذذ بالطاعات وأعمال القربات هو من أعظم نعم الله على عباده، وهو دليل على حياة القلب وإيمانه الصادق.

فليس كل من يؤدي العبادات يشعر بلذتها، بل هي مرتبة سامية يصل إليها المؤمن حين تصبح الطاعات موضع سعادته وراحة نفسه، ويجد فيها أعظم اللذات الروحية التي تفوق كل متع الدنيا.

فالتلذذ بالطاعات يعني أنَّ العبد يؤدي العبادة بشوق وفرح، فيشعر بالقرب من خالقه وسيده فيمتلئ قلبه طمأنينة وسكينة.

فالصلاة ليست مجرد ركعات يؤديها، بل قربة تُقرِّبه من ربه، ويسجد فيها العبد بين يديه سبحانه، فيها يسكب همومه ويشعر برحمة الله وعنايته، كما قال النبي ﷺ: "**وجعلت قرة عيني في الصلاة**"، أي أن قمة السعادة واللذة التي وجدها النبي ﷺكانت في الصلاة.

وكذلك الصيام، فالمؤمن الصادق يجد فيه لذة التضحية والمجاهدة، ويفرح بلحظات القرب من الله، فيكسب من الصيام صبرًا وتقوى، ويشعر بلذة التجرد عن شهوات النفس وتزكيتها.

وأما تلاوة القرآن، فهي لذة لا يعرفها إلا من ذاقها، حين يجد في آياته أنسًا وقربًا، فيصبح القرآن رفيقًا يُسلِّي قلبه، ويغمر روحه بالسكينة والنور.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الرعد: ٢٨].

فذكر الله هو غذاء الأرواح وسبب سعادتها.

والتلذذ بالطاعات نعمة عظيمة يجب على العبد أن يسأل الله الثبات عليها، فهي دليل على محبة العبد لله، إذ يتقرب إليه بفرح وشوق، ويسعى في طاعته ليس طلبًا للثواب فقط، بل حبًا فيه وطلبًا لرضاه، فتتحول الطاعات إلى لذَّة في الدنيا، ينعكس نورها على القلب ويشعر معها بسعادة الدنيا والآخرة.

فيجد في قلبه محبةً لها وشوقًا لعملها، فلو خيروه بين تركها وكنوز الدنيا لاختار هذه الطاعة وهذه القربة على كنوز الدنيا بأسرها، لأنها حلاوة الإيمان التي يعزُّ عليه أن تفارقه ثم لا يجدها ولو بذل هذه الكنوز بأجمعها، ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة البقرة: ١٠٥].

وتأمل -هداني الله وإياك لكل خير- في حال نبينا محمد ﷺ، وكيف كان حاله مع الطاعات والعبادات، وستجد في ذلك مثالًا حيًا على مدى حبِّه العميق للطاعات وحرصه على القربات، وما كان يشعر به من لذة وحلاوة الإيمان التي لا توازيها أي متعة دنيوية.

لقد كان ﷺ يعيش العبادة بكل جوارحه، ويشعر بسعادة غامرة في كل لحظة يخص فيها نفسه بالعبادة لله تعالى.

فصل: في حال نبينا مع الصلاة

فانظر كيف كان مع الصلاة وماذا كان يقول عنها.

روى أبو داود عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِى الْجَعْدِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَا بِلاَلُ أَقِمِ الصَّلاَةَ أَرِحْنَا بِهَا**».

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ**». رواه أحمد والنسائي

وَعَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ، صَلَّى». رواه أبو داود

فهذه الأحاديث الثلاثة تجمع بين الراحة النفسية، ولذة القرب من الله، والثقة به سبحانه عند الشدائد، لتُجسد أسمى معاني حلاوة الإيمان التي يعيشها المؤمن في عبادته وصِدق علاقته بالله.

فهذه الأحاديث تفيد أن العلاقة الوثيقة بالله تعالى، التي تتجسد في الصلاة، تملأ قلب المؤمن بلذة روحية وطمأنينة عميقة.

فالصلاة ليست مجرد تكليف، بل هي مصدر للراحة النفسية والجسدية، حيث يجد فيها المؤمن ملاذًا يسكن إليه، كما ورد في قول النبي ﷺ: "«**يَا بِلاَلُ أَقِمِ الصَّلاَةَ أَرِحْنَا بِهَا**»، وهذا من أسمى معاني حلاوة الإيمان.

إضافةً إلى أنَّ قول النبي ﷺ: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ**»، يدل على أن الصلاة كانت أحبَّ شيء إلى قلبه، وموضعًا للسعادة القلبية والسكينة.

فالمؤمن يشعر فيها بلذة عظيمة لا تضاهيها متع الدنيا، مما يدل على حب القلب الصادق لله.

وأما حديث: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ، صَلَّى**»، فيستخلص منه أنَّ حلاوة الإيمان تجعل المؤمن يلجأ إلى الله عند الشدائد بثقة واطمئنان، ويشعر بالأمان حين يقف بين يدي الله.

فهكذا تفعل حلاوة الإيمان إذا تبشبش لها القلب، وصارت جنته التي يعيشها في الدنيا.

فصل: في حال السلف مع الصلاة:

وهكذا كانت الصلاة عند المؤمنين الصادقين، أولئك الذين سلكوا درب الإيمان بصدق، واتبعوا نهج النبي ﷺ في حب الطاعات والإقبال على العبادة. إنهم لم يراوِغوا في أداء الصلاة أو يتكاسلوا عنها، بل جعلوها قرة أعينهم ومصدر سكينتهم، تمامًا كما كان نبيهم محمد ﷺ.

ومن تأمل في سيرتهم، سيعرف أنَّ الصلاة كانت بالنسبة لهم أكثر من مجرد فرض يؤديه الواحد منهم، بل كانت لحظة من اللحظات الإيمانية العظيمة التي يقترب فيها العبد من ربه سبحانه وتعالى، ومصدرًا للقوة والطمأنينة، تمنحهم ثباتًا وصبرًا في مواجهة تحديات الحياة.

وقد ورد عن السلف الصالح في هذا الباب العديد من الأمثلة التي تبين لنا كيف ذاقوا حلاوة الإيمان واستلذوا بالصلاة.

فقد كان الربيع بن خثيم، يقاد إلى الصلاة وهو في حال مرضه، وبه الفالج، حتى قيل له: "قد رخص لك"، فأجاب بكل يقين: "إني أسمع حي على الصلاة، فإن استطعتم أن تأتوها فأتوها ولو حبوًا".

هذا التعلق الشديد بالصلاة، والتحدي للظروف والآلام، يدل على ما كان يشعر به من حب عميق لتلك اللحظات التي يقف فيها بين يدي ربه، مهما كانت حالته الصحية.

وسمع عامر بن عبد الله بن الزبير المؤذن وهو يجود بنفسه في لحظات مرضه الأخيرة، فقال: "خذوا بيدي"، فقيل له: "إنك عليل"، فأجاب بتواضع وإيمان: "أسمع داعي الله فلا أجيبه".

وبالرغم من مرضه، إلا أنه أصر على أن يلبي نداء الصلاة، فأخذوا بيده ليصلي مع الإمام في صلاة المغرب، فركع ركعة كانت خاتمة عمره في هذه الحياة وهو بين يدي ربه تبارك وتعالى.

أما سعيد بن عبد العزيز، فقد كان إذا فاتته صلاة الجماعة، بكى بكاءً شديدًا. وكان يرى أنَّ ضياع الصلاة في جماعة خسارة لا تعوض، وأنَّ فواتها غمٌ وحزنٌ عميق في قلبه.

هذه الأمثلة وغيرها كثير تُظهر لنا كيف أنَّ الصلاة كانت عند السلف الصالح أكثر من مجرد فرض، بل كانت معراجًا لأرواحهم نحو خالقها وبارئها، وكانت أساسًا لراحة القلب وسكينة النفس.

فما الذي جعلهم على هذا الحال **إنها حلاوة الإيمان**.

ومن غرائب ما روي عن السلف الصالح في شدة تلذذهم بالصلاة ما رواه الدارقطني في سننه عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ فَأَصَابَ رَجُلٌ امْرَأَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَافِلاً أَتَى زَوْجُهَا وَكَانَ غَائِبًا فَلَمَّا أُخْبِرَ الْخَبَرَ حَلَفَ أَنْ لاَ يَنْتَهِى حَتَّى يُهَرِيقَ دَمًا فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَخَرَجَ يَتْبَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُلَّمَا نَزَلَ رَسُولُ

اللَّهِ ﷺ مَنْزِلًا، فَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْزِلًا قَالَ: «**مَنْ رَجُلٌ يَكْلَؤُنَا لَيْلَتَنَا هَذِهِ**». قَالَ فَانْتَدَبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: «**كُونَا بِفَمِ الشِّعْبِ**».

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ وَأَصْحَابُهُ قَدْ نَزَلُوا الشِّعْبَ مِنَ الْوَادِي فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلاَنِ إِلَى فَمِ الشِّعْبِ قَالَ الأنصاري للمهاجري أَيُّ اللَّيْلِ تُحِبُّ أَنْ أَكْفِيَكَ أَوَّلَهُ أَوْ آخِرَهُ قَالَ بَلِ اكْفِنِي أَوَّلَهُ. قَالَ فَاضْطَجَعَ المهاجري فَنَامَ وَقَامَ الأَنْصَارِيُّ يُصَلِّي وَأَتَى الرَّجُلُ فَلَمَّا رَأَى شَخْصَ الرَّجُلِ عَرَفَ أَنَّهُ رَبِيئَةُ الْقَوْمِ فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَوَضَعَهُ فِيهِ فَانْتَزَعَهُ فَوَضَعَهُ وَثَبَتَ قَائِمًا ثُمَّ رَمَاهُ بِسَهْمٍ آخَرَ فَوَضَعَهُ فِيهِ فَانْتَزَعَهُ فَوَضَعَهُ وَثَبَتَ قَائِمًا ثُمَّ عَادَ لَهُ بِالثَّالِثِ فَوَضَعَهُ فِيهِ فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ ثُمَّ رَكَعَ ثُمَّ سَجَدَ ثُمَّ أَهَبَّ صَاحِبَهُ فَقَالَ لَهُ اجْلِسْ فَقَدْ أُتِيتُ فَوَثَبَ فَلَمَّا رَآهُمَا الرَّجُلُ عَرَفَ أَنْ قَدْ نَذِرُوا بِهِ فَهَرَبَ فَلَمَّا رَأَى المهاجري مَا بالأنصاري مِنَ الدِّمَاءِ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ أَفَلاَ أَنْبَهْتَنِي أَوَّلَ مَا رَمَاكَ قَالَ كُنْتُ فِي سُورَةٍ أَقْرَأُهَا فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّى أُنْفِدَهَا فَلَمَّا تَابَعَ عَلَيَّ الرَّمْيَ رَكَعْتُ فَآذَنْتُكَ وَايْمُ اللَّهِ لَوْلاَ أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِهِ لَقُطِعَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا أَوْ أُنْفِدَهَا.

يبين لنا هذا الحديث أن حلاوة الإيمان ليست مجرد شعور نتكلم عنه، بل هي واقع يعيشه المؤمن، حيث يجد في صلاته قوةً تحمله على الصبر والثبات، ويسكن قلبه بالطمأنينة والرضا.

إن قصة هذا الأنصاري لهي دليل قاطع على أن الحب الحقيقي للصلاة لا يتأثر بمرور الزمن أو تغير الظروف، بل يزداد رسوخًا في القلوب المؤمنة.

إنها حلاوة الإيمان.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم نماذج من الرجال الذين تلذذوا بالصلاة وذاقوا حلاوة الإيمان، فاختبرهم الله بالأموال والتجارة، فلم تشغلهم عن راحة قلوبهم، ولا سلوة أرواحهم، ولا حياة نفوسهم. قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة النور: ٣٦-٣٧].

وقد ذكر النبي ﷺ صنفًا من الناس ذاقوا طعم الإيمان وحلاوته، فارتبطت قلوبهم بالمساجد وأصبحت مسكنًا لهم، فلازموا حبها، وقادتهم أشواقُهم إليها. فصاروا ينتظرون أوقات الصلاة بفارغ الصبر، إذ لا شيء في حياتهم يسحبهم عنها أو يشتتهم عن الإقبال على العبادة، لِما ذاقوا مِن حلاوة الإيمان، فقال ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ:... وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ**». متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فلما آثر العبد طاعة الله وأقبل على عبادته، وغلب عليه حب الله سبحانه وتعالى، أصبح قلبه متعلقًا بالمساجد، لا يحب أن يفارقها، لأنه يجد فيها روح القربة إلى الله وحلاوة الطاعة والخدمة.

ولما كان كذلك فإنَّ الله سبحانه وتعالى يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، جزاءً على إخلاصه واهتمامه بالمسجد وعبادته.

فالمؤمن يجد نفسه في المسجد في أقرب حالاته إلى ربه، فيشعر بالسكينة والراحة التي لا تجدها نفسه في أي مكان آخر.

وذلك لأن المؤمن في المسجد كالسمك في الماء، والمنافق في المسجد كالطير في القفص.

لقد ذاق المؤمنون حلاوة الإيمان في قيام الليل، حيث تجلى لهم من طمأنينة القرب من الله ما لا يمكن أن يعبر عنه الكلام.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين يجدون لذة عظيمة في قيام الليل، فقال تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الذاريات: ١٧]. وقال الله عنهم: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة السجدة: ١٦-١٧].

ولك أن تتخيل هذا المشهد البديع من تجافي جنوبهم عن النوم، وما ذاك إلا لما وجدوه من حلاوة الإيمان، والأنس بالطاعة للرحمن والقيام في جوف الظلام.

وتأمل كيف قابل ربنا سبحانه وتعالى ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفسٌ، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم حين يقومون إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة.

فيالها من قلوبٍ أنِست بالله في وحشة الظلام فأثابها الله بحلاوة الإيمان.

وانظر إلى نبينا محمد ﷺ كيف كان حاله في الليل، حيث كان يقوم الليل بأفضل حال، حتى إنه ليصلي في الركعة الواحدة بقرابة خمسة أجزاء بدون كلل ولا ملل إنها حلاوة الإيمان.

قال بعض السلف: جاهدت نفسي عشرين سنة على قيام الليل، وتلذّذت به بقية حياتي.

وَهَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ قَال: " اللهُمَّ إِني قَدْ كُنْتُ أَخَافُكَ وَأَنَا اليَوْمَ أَرْجُوك، اللهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَم أَني لَمْ أَكُن أُحِبُّ الدُّنيَا وَطُولَ البَقَاءِ فِيهَا لجَرْيِ الأَنهار، وَلاَ لغَرْسِ الأَشْجَار، لَكنْ لِظَمَأِ الهَوَاجِر، وَمُكَابَدَةِ السَّاعَات [أَيْ لِلصِّيَام وَالْقِيَام] وَمُزَاحَمَةِ العُلَمَاءِ بِالرُّكَب "

وبنحوه جاء عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعامر بن عبد الله بن الزبير.

قال سعيد بن جابر لما احتضر ابن عمر قال: لم آسف على شيء في الدنيا إلا على ثلاث: ظمأ الهواجر ومكابدة الليل ولم أقاتل الفئة الباغية التي نزلت بنا يعني الحجاج".

ولما حضرت عامر بن عبد قيس الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أبكى جزعًا من الموت، ولا حرصًا على الدنيا، ولكن أبكى على ظمأ الهواجر، وقيام الليل.

إنها حلاوة الإيمان التي ذاقها هذا الرجل، والتي جعلته يبكي ليس على ما فقد من الدنيا، بل على فقدان تلك اللحظات التي كانت له بمثابة حياة جديدة في قلبه وروحه.

كيف لا يبكي من يجد في الصلاة راحةً وسعادةً لا يعادلها شيء في الدنيا؟

كيف لا يشتاق المؤمن للقيام في الليل، وهو يشهد في كل ركعة كيف يقترب من ربه، وكيف يتذوق في تلك اللحظات طعم الإيمان وحلاوته؟

فصل: في حال السلف مع الطاعات

لقد كان حال السلف الصالح مع الطاعات والقربات مثالًا يُقتدى به في حبهم لها وشغفهم بها، حتى غدت لهم راحة ومتعة لا يضاهيها متاع الدنيا الزائل.

كانوا ينظرون إلى الطاعات على أنها مصدر للسعادة الحقيقية والراحة القلبية، ويسعون إليها بكل حبٍ وشوق.

جاء عند البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: أَنْكَحَنِي أَبِي امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ، فَكَانَ يَتَعَاهَدُ كَنَّتَهُ، فَيَسْأَلُهَا عَنْ بَعْلِهَا، فَتَقُولُ: نِعْمَ الرَّجُلُ مِنْ رَجُلٍ لَمْ يَطَأْ لَنَا فِرَاشًا، وَلَمْ يُفَتِّشْ لَنَا كَنَفًا مُنْذُ أَتَيْنَاهُ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: ((**الْقَنِي بِهِ**))، فَلَقِيتُهُ بَعْدُ، فَقَالَ: ((**كَيْفَ تَصُومُ؟**)) قَالَ: كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: ((**وَكَيْفَ تَخْتِمُ؟**))، قَالَ: كُلَّ لَيْلَةٍ، قَالَ: ((**صُمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلاَثَةً، وَاقْرَإِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ**))، قَالَ: قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: ((**صُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ فِي الجُمُعَةِ**))، قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: ((**أَفْطِرْ يَوْمَيْنِ وَصُمْ يَوْمًا**)) قَالَ: قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: ((**صُمْ أَفْضَلَ الصَّوْمِ صَوْمَ دَاوُدَ صِيَامَ يَوْمٍ وَإِفْطَارَ يَوْمٍ، وَاقْرَأْ فِي كُلِّ سَبْعِ لَيَالٍ مَرَّةً**))

فتأمل قول زوجته التي كانت ما تزال عروسًا في أيام عرسها: «نِعْمَ الرَّجُلُ مِنْ رَجُلٍ لَمْ يَطَأْ لَنَا فِرَاشًا، وَلَمْ يُفَتِّشْ لَنَا كَنَفًا مُنْذُ أَتَيْنَاهُ».

إن هذا ليدل دلالة عظيمة أنَّ العبادة ليست مجرد تكاليف أُمرنا بها، بل هي سبيل للسعادة في الدنيا والآخرة.

فمن خلال العبادة يجد الإنسان حلاوة الإيمان التي تجلب له الراحة النفسية والطمأنينة القلبية، ويحصل على رضا الله سبحانه وتعالى ويجزيه الله عنها الجنة.

وقف مع هذا الحديث لترى عجبًا فيمن ذاق حلاوة الإيمان في سائر العبادات، مِن غير الصلاة والصيام والقيام.

روى البخاري عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا المَبِيتَ إِلَى غَارٍ، فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلاً، وَلاَ مَالًا فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ، أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا، فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لاَ يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ "، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: لاَ أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ

وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهَا "، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ، فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لاَ تَسْتَهْزِئُ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ ".

قف مع هؤلاء الثلاثة وانظر أي الناس كانوا وأي الناس نحن.

ولكن كما قيل: إذا ذُكر الصالحون فأُفٍ لي وتُف.

فانظر إلى حال أولهم الذي برَّ والديه أعظم البر حتى إنَّه لم يكن يقدم عليهما أهله ولا أولاده، ولم يقل يومًا مِن الدهر ما صنعوا لي وما فعلوا لي وكم أحسنوا إليَّ، إنما تقرَّب إليهم وأحسن إليهم محبة لله خالصة، لأنَّ الله أمره بالإحسان إليهم أحسنوا إليه أو أساءوا، أعطوه أو منعوا، شكروا أو كفروا، وصلوا أو قطعوا، إنما فعل ذلك امتثالًا لأمر الله القائل: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٨].

إنَّ هذا العبد لما سمع الأمر من الله بالإحسان امتثل أمر الله راضيًا، مختارًا، طامعًا في نيل مرضاة الله، فلما فعل ذلك كما أمره الله، وقام به حق القيام؛ سكنت حلاوة الإيمان في سويداء قلبه.

فأين هؤلاء من شباب زماننا، وما أدراك ما حال شباب زماننا؟ لقد ابتُلي كثيرٌ منهم بجفاءٍ لأبائهم وأمهاتهم، حتى أساءوا معاملتهم ونهروهم، بل وبلغ بهم العقوق أن يشكوهم إلى الناس، متجاهلين حقهم العظيم في البر والإحسان.

وإذا نُصح أحدهم فقيل له: "أطع أباك ولا تعقه"، كان جوابه مليئًا بالجحود وقلة الأدب، فيقول: "وماذا فعل لي؟ وكم أحسن إلي؟ إنه يُفضل أخي عليَّ، ولم يترك لي شيئًا!" وكأنما الإحسان والبر أصبحا مشروطين بالمصلحة والمكافأة.

أين هؤلاء من وصايا الله ورسوله ﷺ؟! ألم يسمعوا قول الله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ ﴾ [سورة الإسراء: ٢٣].

وأين هم من حديث النبي ﷺ: «**رِضَا اللَّهِ فِي رِضَا الوَالِدِ، وَسَخَطُ اللَّهِ فِي سَخَطِ الوَالِدِ**». رواه الترمذي عن عبد الله بن عمرو.

إنَّ العقوق من أعظم الكبائر، وعقوبته معجلة في الدنيا قبل الآخرة، فليتقِ الله أولئك الشباب، وليبادروا إلى بر آبائهم وأمهاتهم قبل أن يفوت الأوان، فإنَّ البر إليهم سببٌ لرضا الله وسعة الرزق وطول العمر، أما العقوق فباب لكل شقاء ونقمة.

ولننظر إلى هذا الرجل الذي أحسن إلى أبيه رغم أنَّ أباه كان كافرًا.

إنَّه إبراهيم ﷺ لما دعا أباه بكلام لطيف جدًا وترفق في دعوته غاية الترفق، فلما أكمل إبراهيم حديثه قال أبوه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [سورة مريم: ٤٦]. فما كان من إبراهيم عليه السلام إلا أن قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾

انظر إلى البر الحقيقي، أبوه يقول له لأرجمنك، وهو يقول سأستغفر لك ربي.

إنها حلاوة الإيمان في بر الوالدين، فإنَّه لا يطلب عن البر جزاءً إلا من الله.

وتلمس ذلك منه ﷺ حين أن ألقاه أبوه وقومه في النار ومع ذلك لا يزال يدعو لأبيه، ويرفق به.

وانظر إلى ولده إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وتخيل ما كان عليه هذا النبيُّ الصالح من البر والإحسان إلى أبيه، وتأمل هذا المشهد لتعلم عظيم البر للوالدين ولو أدى به هذا البر إلى الموت والقتل.

قال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة الصافات: ٩٨-١٠٥].

ما أعظم البر والتسليم المطلق لأمر الله: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾.

ولهذا أثنى عليه الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾ [سورة مريم: ٥٤].

فصدق بما وعد أباه به؛ بأنه سيصبر طاعة لله وبرًا بأبيه.

فما الذي جعله على ذلك الحال إنها حلاوة الإيمان.

وانظر إلى الثاني منهم في قصة أصحاب الغار.

الذي قال: «اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: لاَ أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ».

ما الذي جرى في قلبه، وما الذي استجد حين ذكَّرته بالله سبحانه وقالت له اتق الله.

إنَّ الناظر إلى هذه القصة ليجد أنَّ الشيطان قد يحاول جاهدًا إلى أن يتسلط على العبد وأن يضعف إيمانه ومِن ثمَّ يذهب رونقُ استقامته، وحلاوةُ إيمانه.

ولكن مَن عَلِمَ الله صدق إيمانه لم يكن ليسلِّط عليه عدوه ويتركه يتلاعب به، فهو سبحانه أرحم بعبده من نفسه، فإنَّ الله يدافع عن الذين آمنوا، وهذا من دفاع الله على عبده، أن يذكِّره به في وقت شهوته ليرده إليه.

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [سورة الأعراف: ٢٠١].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٣٥].

فهذا هو حال المؤمن الصادق الذي أضاء الإيمان في جوانب قلبه، لم يكن ليرتضيَ أن تنطفئ أنوار قلبه، وأن تذهب حلاوة الإيمان منه.

ولك أن تتخيل كيف كان حرص هذا الرجل على أن يصل إلى ما تمنته نفسه من الظفر بابنة عمه ومواقعتها، وكم تعب في جمع المال حتى إذا تم له الأمر ذكَّرته بالله، ذكَّرته بمن قذف النور في قلبه وأذاقه حلاوته، فأدرك عندها أنَّ متعة الشهوة الفانية لا تستحق أن يخسر بها حلاوة الطاعة ونور القلب، فانتفض كما ينتفض العصفور في الماء فسارع إلى مرضاة ربه وقام عنها خائفا فزعًا يخاف أن تنطفئ أنواره، وترك المال الذي أعطاها، وهو في ذلك يبتغي وجه الله وحده.

فأثابه الله سبحانه وتعالى عن اللذة الفانية التي كان سيجدها في مواقعته لتلك المرأة بزيادة حلاوة الإيمان في قلبه فيالها مِن مكافأة عظيمة من ربٍ رحيمٍ.

وتأمل عظيم كرم الله جلَّ جلاله وتقدست أسماؤه؛ فهو الذي ذكَّره به، وهو الذي أعانه على القيام من ذلك المكان والخروج عنها وترك المال لها، وهو الذي فجَّر براكين الخوف في قلبه ثم هو الذي أثابه على ذلك كلِّه فزاد في إيمانه وأذاقه حلاوة هذا الإيمان، فالفضل أولا وآخرًا له سبحانه، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩].

فلما أثَّر هذا الموقف في نفسه، وزاد في إيمان قلبه، ابتهل إلى الله به في شدة كربه فنجاه الله به.

فأين أولئك الذين أطلقوا أبصارهم في الحرام، غافلين عن مراقبة الله لهم، غير متعظين بما تحمله مثل هذه القصص من دروس وعبر؟ أين هم من الاعتبار بحال من سبقهم ممن غرتهم الشهوات حتى أوردتهم موارد الهلاك؟ ألم يعلموا أن الله يراهم في كل لحظة، وأن هذه النظرات المحرمة تسجل في صحائف أعمالهم ليحاسبوا عليها يوم القيامة؟ أفلا يتفكرون في عواقب المعصية، ويتأملون في قصص التائبين الذين أدركوا خطورة الانسياق خلف الحرام فعادوا إلى ربهم تائبين مستغفرين؟

وهكذا كان حال الثالث الذي قال:

" اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ، فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لاَ تَسْتَهْزِئُ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ "

تأمل في حال هذا الرجل، الذي لم يكن هدفه من جمع المال وتثميره سوى التقرب إلى الله سبحانه. كان مخلصًا في عمله، ورغم أن المال كان قد نما وازداد، إلا أنه لم يكن يهدف إلى شيء سوى إرضاء ربه. وعندما جاء صاحب المال ليطالب بحقه، لم يكن في قلبه أي شعور بالتمسك أو الاستغلال. بل قدم له كل شيء من دون تردد، ولم يفكر في الاحتفاظ بشيء لنفسه. وذلك لأن عمله كان خالصًا لوجه الله، لا يريد جزاء من أحد سواه.

والحقيقة أنَّ حلاوة الإيمان التي شعر بها هذا الرجل كانت أغنى له وأعظم من كل الأموال التي جمعها، ومن كنوز الأرض كلها، لأنها كانت من ثمرات القرب من الله سبحانه، وحينما كان عمله مخلصًا لله، كانت مكافأته من الله أعظم من أي مال.

ويذكرني هذا بموقف نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام الذي ذكره ربنا سبحانه وتعالى في كتابه فقال: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة القصص: ٢٣-٢٧].

يا له مِن مشهد بديع؛ يسقي لهما ثم ينادي ربه ويقول ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

ويذكرني بموقف النبي ﷺ الذي قصَّه لنا أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيثُ قَالَ: " كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ، مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ "

وقف عند قوله: «**فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ**».

لتعلم أنَّهم يعاملون ربهم سبحانه وتعالى بتعاملهم الحسن مع الناس أحسنوا إليهم أو أساءوا.

ولو أنَّ الواحد منَّا فُعِل به هكذا، وقيل له هذا الكلام لأساء الرد إليه أيَّما إساءة ولكنها حلاوة الإيمان التي آثروها على مجرد معاملة الناس بالمثل.

المبحث الرابع: حلاوة الإيمان في ترك الذنوب والمعاصي

إنَّ ترك الذنوب والمعاصي من أسمى مراتب القرب من الله؛ فهي ليست مجرد امتناع عن شيء محرم، بل هي شعور عميق بالراحة والسعادة التي يمنحها الله لمن يترك المعصية ابتغاء وجهه.

فإذا تمكن الإيمان من قلب العبد، يصبح ترك المعاصي طاعة يجد فيها لذة وطمأنينة، ويشعر معها بعزة النفس وكرامة الروح، إذ لم يضعف أمام الشهوات ولم ينجرّ خلف مغريات الدنيا.

إن حلاوة الإيمان تمنح صاحبها إحساسًا بالأمان من عاقبة المعاصي، فهو يعيش مطمئن القلب، بعيدًا عن الشعور بالذنب أو الندم الذي يرافق الوقوع في الحرام. وتزداد هذه الحلاوة كلما ازداد المؤمن يقينًا بأن الله يعوّضه عن تركه للحرام بما هو أفضل، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [سورة الطلاق:٢-٣]، فيعيش المؤمن واثقًا من عون الله وعوضه، فيرى أنَّ لذة الطاعة أجمل وأبقى من أي لذة زائلة للمعصية.

كما أن ترك الذنوب يجلب للنفس صفاءً، ويطهر القلب من آثار المعاصي التي تكدّره، فيشعر العبد بنور الإيمان يملأ قلبه، ويزداد قربه من الله وارتباطه به، فكلما ابتعد عن الحرام ازداد قربًا من الحلال ووجد في طاعة الله سعادته وراحته، فيزداد إيمانه ويذوق حلاوة القرب منه سبحانه.

وهكذا، يجد المؤمن في ترك الذنوب والمعاصي قوة داخلية وعزيمة صادقة، ويشعر بمعية الله وتوفيقه، فتتحول حياته إلى رحلة سعيدة من الطاعات والبعد عن الشبهات، ويذوق بذلك طعم السعادة الحقيقية التي هي أعظم من أي لذة مؤقتة تأتي بها المعاصي.

ويا لله العجب، كيف وجد أناسٌ حلاوة الإيمان حين تركوا المعاصي، حتى أبغضوها، وآثروا رضى الله على لذةٍ تعقبها حسرة وندامة! فلقد استبدلوا لذائذ عابرة بلذَّة خالدة ينعمون بها في قربهم من الله، ووجدوا في طاعة الله ما يغنيهم عن إثم يجرّ خلفه الآهات.

وتأمل في قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز، وهي من أروع المشاهد التي تبيِّن كيف وجد المؤمنون حلاوة الإيمان حين تركوا المعاصي، حتى أبغضوها، وآثروا رِضى الله على لذة عابرة تعقبها حسرة وندامة.

عندما راودته امرأة العزيز، كان بإمكانه أن يستجيب، خاصةً أنه كان في بلد غريب، ولا يوجد من يراقب أمره، ولكن قلبه المليء بحب الله وخشيته دفعه للثبات. قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ﴾، فكانت تقواه وورعه أقوى من إغراء المعصية، فآثر السجن على الوقوع في الحرام، ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة يوسف: ٣٣].

بالله عليك هل تفكرت في هذه الكلمات يومًا من الدهر وأنت تقرأ سورة يوسف، إذ يقول عليه السلام: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾.

فيا لها مِن كلمات تخترق الأسماع من قوتها، هل رأيتم مدى بغضه للمعاصي والمنكرات حتى تمنى السجن وفضَّله وصار أحبَّ إليه من الوقوع في الفاحشة.

أتدرون لماذا، إنها حلاوة الإيمان.

فلقد والله وجد يوسف عليه السلام في إيثار رضا الله على المعصية طمأنينة عميقة، وحلاوة عظيمة أعظم من أي لذة، وارتقى بهذا الثبات في درجات الإيمان، ولهذا قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، قِيلَ: الْهَاءُ رَاجِعَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يُرِيدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، أَيْ آوَانِي وَمِنْ بَلاَءِ الْحُبِّ عَافَانِي.(١)

فلما كان كذلك؛ رفع الله شأنه وجعله من عباده المخلصين، وأبدله خيرًا، حيث خرج من السجن مكرمًا، وأصبح عزيز مصر.

فتَرْكُ المعصية، وإن بدا صعبًا في أول الأمر، إلا أنَّه يمنح صاحبه حلاوةً لا تضاهيها أي لذة دنيوية، ويفتح له أبواب التوفيق والكرامة في الدنيا والآخرة.

---

(١) هذا على أحد القولين في رجوع الضمير. ذكره البغوي وغيره.

المبحث الخامس: حلاوة الإيمان في تحمل المشاق في سبيل الله

حلاوة الإيمان في تحمل المشاق في سبيل الله هي أن يشعر المؤمن بتقوى الله ورعايته في كل لحظة من لحظات حياته، ويعلم أن المشاق هي طريق إلى مرضاة الله وإلى الجنة.

فمن خلال الصبر والتضحية، يتحقق للمؤمن الأجر الكبير، ويزداد قربًا من الله، ويجد طمأنينة وسكينة في قلبه مهما كانت التحديات.

✍ فهذا إبراهيم عليه السلام:

سيد الحنفاء الذي اجتمع قومه على إلقائه في النار، لأنه عاب آلهتهم وأثبت عجزها وضعفها، وعدم استحقاقها للعبادة، فكان بذلك الأمر تسفيهًا لهم، إذ كيف قادتهم عقولهم التي أعطاهم الله إلى أن يعبدوا أحجارا لا تملك لنفسها نفعا ولا تدفع عنها ضُرًا، فلما دَحَضت حجتهم، وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم،: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٦٨].

فجمعوا حطبًا كثيرًا جدًا، -قال السُدِّي: حتى إن كانت المرأة تمرض، فتنذر إن عوفيتْ أن تحمل حطبًا لحريق إبراهيم-ثم جعلوه في جَوْبة من الأرض، وأضرموها نارًا، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع، لم توقد قط نار مثلها، وجعلوا إبراهيم، عليه السلام، في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد،

فما كان مِن هذا النبي ﷺ إلا أن صبر على هذا الأمر، ولم يناشد قومه ولا أباه ولا عشيرته، وإنما رفع مسألته إلى خالقه ومولاه الذي أذاقه طعم الإيمان.

فرفع بلواه إلى محبِّ أوليائه، وشكواه لمجيب عباده، فقال: "حسبي الله ونعم الوكيل".

جاء عند البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: " كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ".

فيالها مِن كلمات عظيمات تدل على عِظَمِ الإيمان في قلب هذا النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، يقولها مطمئنًا واثقًا بنصر الله وفرجه، فأنزل الله نصره على عبده، قال الله عز وجل: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٦٩].

الله أكبر، صارت هذه النار التي أرادوا إحراق إبراهيم بها، صارت مؤنسة له لا ضرر فيها عليه.

فما الذي جعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يصبر على ذلك، ولا يأبه لكيدهم ولا يهتم له، إنها حلاوة الإيمان.

فالإيمان بالله تعالى يعطينا القوة لمواجهة أصعب الصعوبات، ويُخرجنا من دائرة الخوف والقلق إلى ساحة الأمان والطمأنينة. مهما كانت التحديات، فإن المؤمن الذي يثق في ربه ويعتمد عليه يستطيع أن يتحمل كل شيء، لأنه يعلم أن الله هو الأعلم والأقدر والأحكم في تدبير أموره.

وأولئك السحرة الذين كانوا مع فرعون

وقد أخبرنا الله من عجيب أمرهم في كتابه فدونك هذه القصة من كتاب الله لترى عجبًا مِن خبر القوم.

قال الله سبحانه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة طه: ٦٧-٧٧].

إن قصة السحرة مع فرعون هي من أروع القصص التي تجسد حلاوة الإيمان في مواجهة المشاق والابتلاءات.

ففي هذه القصة نرى مثالًا حيًّا للثبات على الإيمان والصبر في سبيل الله، وكيف أن الإيمان الحقيقي يمكن أن يغير مسار الحياة بالكامل، حتى من طريق الكفر إلى طريق الإيمان.

ففي بداية القصة، كان السحرة الذين يعملون في بلاط فرعون هم أعظم القوم في السحر وأشدهم قوةً. كانوا يملكون مكانة رفيعة في المجتمع، وكانوا يبحثون عن الدنيا وملذاتها، كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة الشعراء: ٤١-٤٢].

لقد كانوا في البداية في صف فرعون، يسعون وراء المال والجاه والسلطة، وهذا كان دافعهم للمشاركة في محاربة رسالة موسى عليه السلام؛ لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يغير حالهم ويظهر لهم الحقيقة.

حينما شاهد السحرة المعجزات التي أتى بها موسى عليه السلام، وعرفوا أن هذا ليس سحرًا، بل هو آية من عند الله الحكيم الخبير، تحولوا من كفر إلى إيمان. الله سبحانه وتعالى يصف ذلك في قوله: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [سورة طه: ٧٠].

هذه اللحظة كانت فارقة في حياتهم، حيث كانت قلوبهم تتفتح على حقيقة الإيمان، وفي تلك اللحظة شعروا بحلاوة الإيمان التي غمرت قلوبهم وأدت إلى التضحية بكل شيء في سبيل الله.

فلما أُسْقِط في يد فرعون وجنوده لم يجد ما يفعله إلا أن يلجأ لاستخدام القوة فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾﴾، لم يضعف السحرة، بل زادهم هذا التهديد ثباتًا وإيمانًا،

فأجابوا بإيمان يجدون حلاوته في قلوبهم: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾﴾

ثم بينوا له ما كانوا غافلين عنه وما ظفروا به من حلاوة الإيمان: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾

هنا تظهر حلاوة الإيمان، حيث أصبحت حياتهم في الدنيا لا تساوي شيئًا مقارنة بالأجر الذي وعدهم به الله سبحانه وتعالى في الآخرة.

فعندما قال فرعون لهم: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٢٤]، كانوا قد آثروا الإيمان على ما يملك فرعون من لذائذ الدنيا. فحينما زادت المحنة، كانوا مستعدين لتحمل كل شيء؛ من القتل، والتعذيب، والتصلب في النخل، لأنهم ذاقوا حلاوة الإيمان التي لا يمكن أن تضاهيها أي لذة دنيوية، فقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [سورة الشعراء: ٤٨-٥٢].

وإنَّ العجب ليزداد عندما نعلم أنَّ هؤلاء السحرة كانوا كفارًا يتبعون فرعون في أول النهار، فصاروا مؤمنين ودعاة إلى الله في آخر النهار!

كانوا في البداية يخاصمون موسى، لكنهم بعد أن آمنوا بالله، أصبحوا يخاصمون فرعون ويذكرونه بعذاب الله، قائلين له: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ

جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

ففي هذه القصة يتبين بوضوح كيف أن حلاوة الإيمان قد أحدثت تحولًا جذريًا في حياتهم، فنقلتهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن عبودية فرعون إلى عبادة الله وحده.

آسيا بنت مزاحم امرأة فرعون

هذا مشهد آخر تتجسد فيه حلاوة الإيمان في تحمل المشاق في سبيل الله، وأحداثه تدور أيضًا في بيت فرعون عليه لعائن الله.

إنها قصة آسيا بنت مزاحم، زوجة فرعون، التي آمنت بربها في زمن كان فيه الإيمان بالله عز وجل يُعدُّ خيانة كبرى في عيون الطغاة.

لقد تركت هذه المرأة المؤمنة القصور والدور، والخدم والحشم، والثراء الفاحش، والملابس الفاخرة، والطعام والشراب الفاخر، وكل ملذات الدنيا التي كانت بين يديها، بل وتجاوزت ذلك لتسأل ربها بيتًا في الجنة، معتبرةً إياها خيرًا وأبقى: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [سورة التحريم: ١١].

ما الذي جعلها تصل إلى هذه الدرجة من الصبر والثبات في الإيمان؟

إنها حلاوة الإيمان التي ذاقتها، والتي فاقت في قلبها جميع لذائذ الدنيا.

فإنها رغم ما كانت فيه من جاهٍ ومال، اختارت الآخرة على الدنيا، وفضلت رضا الله على رضا فرعون.

وحلاوة الإيمان هي التي جعلتها تتحمل أشد أنواع العذاب في سبيل الله، في وقت كانت فيه سلطانة في مملكة فرعون، ولكنها أبت إلا أن تختار دارا بجوار الرحمن سبحانه وتعالى.

إنَّ الابتلاء العظيم الذي لاقته آسيا على يد فرعون كان قاسيًا جدًا؛ فقد جاء في حديثٍ عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " أَنَّ فِرْعَوْنَ، أَوْتَدَ لِامْرَأَتِهِ أَرْبَعَةَ أَوْتَادٍ فِي يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا، فَكَانَ إِذَا تَفَرَّقُوا عَنْهَا ظَلَّلَتْهَا الْمَلَائِكَةُ، فَقَالَتْ: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ فَكَشَفَ لَهَا عَنْ بَيْتِهَا فِي الْجَنَّةِ "[1]

ففي تلك اللحظات العصيبة، بينما كانت تتلقى هذا العذاب الشديد، لم تنسَ حلاوة الإيمان التي ملأت قلبها، فدعت ربها في تلك اللحظات الصعبة، قائلةً: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾.

ولإيمانها الثابت، كَشَفَ الله لها عن بيتها في الجنة، مكافأة لها على صبرها وصدق إيمانها.

---

[1] (صحيح موقوف) رواه أبو يعلى في " مسنده " موقوفا على أبي هريرة وله حكم الرفع.

فحق لها أن تكون مِن أفضل نساء الجنة فقد جاء عند أحمد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ خُطُوطٍ قَالَ تَدْرُونَ مَا هَذَا فَقَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **"أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ"**.

فلما اختارت رضا الله جل جلاله على مُلكِ فرعون؛ استحقَّت بذلك أن تكون من أعظم نساء الجنة، ومثالًا حيًا في الثبات على الإيمان مهما كانت الظروف.

إنَّ قصة هذه المرأة المؤمنة تمثل نموذجًا رفيعًا في أن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فإنَّه يغير حياة الإنسان، ويجعله يواجه أكبر التحديات والمشاق من أجل إرضاء الله، كيف لا وقد ذاقت حلاوة الإيمان وجعلتها تتطلع إلى الجنة، مما جعلها تتجاوز كل صعاب الدنيا بما فيها.

قصة ماشطة ابنة فرعون

في مشهد آخر من مشاهد حلاوة الإيمان، نرى امرأة مؤمنةً صادقةً، وهي ماشطة ابنة فرعون، التي تعرضت لأقصى أنواع العذاب في سبيل إيمانها بالله. لقد كانت من أعظم الأمثلة في الصبر والثبات على الدين، وآثرت تحمل مشاق الحياة في سبيل الله على التراجع عن إيمانها.

روى أحمد في مسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا، أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلادِهَا** ". قَالَ: " **قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ سَقَطَتِ الْمِدْرَى مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللهِ. فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟**

قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ. قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ قَالَتْ: نَعَمْ. فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا، فَقَالَ: يَا فُلانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ (١) **مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلادُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَتَدْفِنَنَا. قَالَ: ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الحَقِّ**». قَالَ: «**فَأَمَرَ بِأَوْلادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ**

---

(١) قوله: (فأمَر ببَقَرة من نُحاس فأُحْمِيت): قال ابن الأثير في " النهاية " (١/ ١٤٥): قال الحافظ أبو موسى: الذي يقَعُ لي في معناه أنه لا يريد شيئاً مَصُوغا على صورة البَقرة، ولكنَّه ربَّما كانت قِدرا كبيرةً واسعة، فسماها بقرة، مأخوذا من التَّبقُّر: التوسع، أو كان شيئاً يَسع بقَرة تامَّة بِتَوابِلِها فسمِّيت بذلك.

يَدَيْهَا، وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلَى أَنِ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ، كَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ: يَا أُمَّهْ، اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ». (١)

في هذا الحديث النبوي، يذكر النبي ﷺ كيف كانت رائحة الطيب التي فاحت ليلة الإسراء، وهي رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها، علامةً على شرف هذه المرأة وصدق إيمانها.

---

(١) (حسن) أخرجه أحمد ١/ ٣٠٩ (٢٨٢٢) قال: حدثنا أبو عمر الضرير. وفي ١/ ٣١٠ (٢٨٢٣) قال: حدثنا عفان. وفي (٢٨٢٤) قال: حدثنا حسن. و (عبد الله بن أحمد) ١/ ٣١٠ (٢٨٢٥) قال: حدثنا هدبة بن خالد.

أربعتهم (أبو عمر، وعفان، وحسن، وهدبة) عن حماد بن سلمة. قال: أخبرنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبير، فذكره.

وحماد اختلط في آخره، ومختلف في سماعه من عطاء فقيل قبل الإختلاط وقيل بعده.

قلت: لكنه لم يتفرد به عن عطاء فقد تابعه عليه أسباط بن نصر الهمداني كما في تاريخ دمشق لابن عساكر، والمعافى لابن زكريا في الجليس الصالح، وأسباط هذا صدوق كثير الخطأ.

وله شاهد عند ابن ماجة (٤٠٣٠) قال: حدَّثنا هِشَام بن عَمَّار، قال: حدَّثنا الوَلِيد بن مُسْلم، قال: حدَّثنا سَعِيد بن بَشِير، عن قَتَادَة، عن مُجَاهِد، عن ابن عَبَّاس عن أبي بن كعب به.

وفيه سعيد بن بشير الأزدي وهو ضعيف.

فالحديث أقلُّ أحواله أنَّه حسن بالطريقين الأولين، وهذا الشاهد.

والله أعلم بالصواب.

وأما استنكار العلامة الألباني للزيادة التي وردت في آخره وهي قول ابن عباس: " تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ ".

فلا إشكال فيه فهذا موقوف على ابن عباس وليس هو مما ورد في لفظ الحديث السابق ولعل ابن عباس تلقاه عن الإسرائيليات، فزاده هنا حين أورد قصة ماشطة ابنة فرعون، فلا يضعَّفُ الحديث لأجل هذا فلم يرفعه ابن عباس هنا إلى رسول الله ﷺ، فسقط الإشكال والحمد لله. والحديث حسنه محققو مسند أحمد.

ولكن كيف وصلت إلى هذه المكانة الرفيعة رغم العذاب الشديد الذي لاقته؟

فقد كانت ماشطة ابنة فرعون تخدم ابنة فرعون، وفي أحد الأيام بينما كانت تمشط شعرها، سقطت المِدْرَى (أداة تمشيط الشعر) من يدها وقالت: "بِسْمِ اللهِ".

فسألتها ابنة فرعون: "أَبِي؟ ".

فأجابتها الماشطة بكل إيمان: "لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ. "

فذهبت ابنة فرعون وأخبرت أباها بما سمعته منها، فاستدعاها فرعون، قائلاً: "يَا فُلانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟ "

فأجابته بثقة إيمانية: "نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. "

فأمر فرعون بتعذيبها، فكان أمره بأن تُحمى بقرة من نحاس وتُلقى فيها، ولكنها لم تتراجع عن إيمانها. بل كان قلبها مفعمًا بحلاوة الإيمان الذي لا يعادله أي شيء في الدنيا.

وماشطة ابنة فرعون، وهي في مواجهة هذا العذاب الشديد، طلبت من فرعون أن يُجمع عظامها وعظام أولادها في ثوب واحد، وأن يُدفنوا معًا بعد موتهم، فوافق على طلبها قائلاً: "ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الحَقِّ. "

ثم بدأ فرعون بقتل أولادها أمام عينيها، واحدًا تلو الآخر، إلى أن وصل إلى صبيها الرضيع، فكان المشهد الأكثر قسوة، حيث توقف قلب الأم لحظةً، ولكن في تلك اللحظة، تكلم الرضيع، ليعطي أمه القوة في مواجهة المحنة، وقال لها:

"يَا أُمَّهْ، اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ. "

وبهذه الكلمة، نالت ماشطة فرعون شرف الشهادة، واختتمت حياتها في سبيل الله، تاركةً لنا درسًا عظيمًا في الثبات على الإيمان والصبر في وجه الشدائد.

وفي الحديث، نجد أن حلاوة الإيمان هي التي جعلتها تستحسن العذاب الذي لاقته في سبيل الله، بل وعبرت عن ذلك بشجاعة نادرة، بأن فضلت عذاب الدنيا على عذاب الآخرة.

لقد كانت لحظة اختبار عظيم، لكنها آثرت الجنة على دنيا فرعون الزائلة.

ويكفي أن يذكرها النبي ﷺبأفضل الأعمال وأعظم الطاعات، ويخبر عن رائحتها الطيبة التي أكرمها الله بها، وهي شرفٌ عظيم لها، إذ أنها لم تساوم في إيمانها مهما كانت المغريات.

قصة بلال رضي الله عنه:

وقصة بلال بن رباح رضي الله عنه تعد من أعظم الأمثلة على حلاوة الإيمان، كيف لا وهو ذلك العبد الحبشي الذي عانى من أقسى أنواع العذاب والاضطهاد في سبيل إيمانه بالله.

لقد كان بلال رضي الله عنه واحدًا من أول سبعة من الصحابة الذين أعلنوا إسلامهم، وكانوا أول من تحملوا عناء التعذيب والاضطهاد من المشركين في مكة، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: " أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلاَمَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّارٌ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلاَلٌ، وَالْمِقْدَادُ، فَأَمَّا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَنَعَهُ اللهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ، فَمَنَعَهُ اللهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، فَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ، وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ إِنْسَانٌ إِلَّا وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا، إِلَّا بِلاَلٌ، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ، فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ، وَأَخَذُوا يَطُوفُونَ بِهِ شِعَابَ مَكَّةَ، وَهُوَ يَقُولُ أَحَدٌ، أَحَدٌ "

لقد كان بلال رضي الله عنه وأرضاه عبدًا حبشيًا فقيرًا، فكان عذاب قريش له شديدًا، حيث جردوه من ملابسه وألبسوه أدراع الحديد وصهره في الشمس، في محاولة منهم لإرغامه على التراجع عن إيمانه.

لكن ما الذي جعل بلالًا رضي الله عنه يصمد أمام كل هذا العذاب؟ وما الذي جعل نفسه تهون في سبيل الله؟ إنها حلاوة الإيمان.

لقد شعر بلال رضي الله عنه بحلاوة الإيمان التي تغمر قلبه، وحب الله الذي أصبح أعظم عنده من حب الدنيا أو الراحة أو السلامة من الأذى.

لم تكن الدنيا بكل متاعها تساوي عنده شيئًا مقارنة بنعيم الإيمان واليقين الذي أودعه الله في قلبه. بل وأكثر من ذلك، كان كلما ازداد العذاب، ازداد إيمانه بالله عز وجل وثباته على الحق.

وقد كان العذاب الذي لاقاه بلالٌ رضي الله عنه شديدًا، حيث كانوا يأخذونه ويطوفون به في شعاب مكة، يجلبون الأولاد لينهكوه، حتى وصل الحال بهم إلى وضعه في الصحراء الحارة تحت حرارة الشمس المحرقة، يوضع على صدره حجر كبير لكي يشتد عذابه.

لكن كان بلال رضي الله عنه يرد في كل مرة بتكبيره وعبادته لله وحده، ويقول بصوتٍ عالٍ: "أَحَدٌ، أَحَدٌ"، في إشارة إلى التوحيد بالله سبحانه وتعالى.

لم يُثنه العذاب ولم تُكسره الآلام، بل زاد تمسكه بالإيمان واحتسب الألم لوجه الله تعالى، وعاش ذلك الشعور الغامر الذي يعجز اللسان عن وصفه: حلاوة الإيمان.

فما كان من المشركين إلا أن تركوه في النهاية، وظل بلالٌ رضي الله عنه ثابتًا على إيمانه في وجه كل الضغوطات.

السر في ذلك هو أن بلالًا رضي الله عنه استشعر حلاوة الإيمان، وعرف أن رضا الله عن العبد أعظم من أي لذة في الدنيا.

إنَّ مشهد بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تعذيب قريش له ثم تصريحه بـ "أحد، أحد"، يمثل لنا كيف أن حلاوة الإيمان هي التي تعطي الإنسان قوة لا مثيل لها، وقدرة على التحمل والثبات أمام أعظم الأزمات. فمع كل ألم ومع كل جرح، كان بلال يزداد إيمانًا وثباتًا، ويشعر بأن الله معه.

فحلاوة الإيمان هي التي تجعل الإنسان يتحمل أضعاف ما يطيق، فالإيمان يجعل المشقة سهلاً، ويجعل العذاب خفيفًا، ويجعل الروح تسمو عن كل ما هو دنيوي.

✍ قصة الغلام والراهب وأصحاب الأخدود

وهذه القصة الذي يتأمل فيها يرى عجبًا، فتعالوا لننظر كيف تفعل حلاوة الإيمان بقلوب مَن مَنَّ الله عليهم بنيلها، وذوق طعمها.

روى مسلم عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلاَمًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاَمًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي،

قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ [ص: ٢٣٠٠] حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمِ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمِ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا

مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ "

لننظر إلى حلاوة الإيمان التي ذاقها كلٌّ مِن الوزير والراهب حين قُتِلوا ولم يرضوا أن يرجعوا عن دينهم.

وليس العجب من هؤلاء ولكن مِن ذلك الغلام الذي وجد حلاوة الإيمان فأراد أن يكون له أثرٌ مِن عملٍ صالح بعد موته.

ولننظر إلى قوة الإيمان التي منَّ الله عليه بها حتى إنَّ الملك يرسل به مرتين ليُقتل وفي كل مرةٍ ينقذه الله من أولئك الجنود، لكنه يرجع ماشيًا برجليه إلى الملك، فقد صار في نفسه هدفٌ لا يريد أن يرجع عنه ولو كان الثمن في ذلك أن يُقتل ويموت، إنها حلاوة الإيمان، وحب التضحية في سبيل الله جل وعلا.

فيأتي إلى الملك ويقول له: «**إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ**

كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي»

لك أن تتصور مدى ما وصل إليه هذا الغلام الصغير مِن قوة الإيمان؛ حتى يقول هذا الكلام ويقترح طريقة قتله.

اللهم منَّ علينا وتفضل بتقوية إيماننا، فإنَّ الواحد منا ليعجز عن التمسك بالسنن خشية الناس ولومِهم فضلا عن أن يؤذوننا ويضرونا، فمُنَّ علينا يا ربنا بقوة الإيمان، وارزقنا حلاوة الإيمان التي أذقت طعمها لهؤلاء الجبال.

وتخيل استسلامه لأن يُصلب على الجذع وينتظر لحظة موته، وقد مُلئ قلبُه إيمانًا إلى مشاشه، ما أحلاها وما أجملها مِن موتةٍ في سبيل الله سبحانه، وياله مِن موقف شجاع، فأثابه الله جزاء عمله وشجاعته، أن هدى الناس جميعًا ويأتون يوم القيامة في ميزان هذا الغلام المؤمن.

ويزداد عجبي والله حين أقف على إيمان هؤلاء الناس الذين يخيرون بين الموت أو يعودون في ملة الكفر فيختارون الموت الذي تشوبه حلاوة الإيمان، حتى إنَّ الواحد منهم لينتظر دوره في إلقائه في النار لا يرده ذلك عن دينه.

ويزد العجب أكثر مِن تلك المرأة التي أفردها النبي ﷺ بالذكر لعظم ما ثبتها الله به، فأخذ الجنود يلقون الناس واحدا واحدا، **"حَتَّى جَاءَ دورُ امْرَأَةٍ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِي النارِ، فثبتَها الله فأنطق الغلام، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ، فألقت بنفسها وولدها في النار"**، إنها حلاوة الإيمان.

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

فكم عانى هذا الإمام وكم وجد مِن المشاق ومع ذلك فقد كان منشرح الصدر هادئ البال، لا يبالي بما صُنع به في الله ومِن أجل الله.

فها هو يساق ويُقاد ليسجن في سجن القلعة، فيمشي وهو غير آبهٍ بما سيُصنع به حتى إذا أُدخِل السجن وأُغلِق الباب عليه فيه نظر إليه وقرأ قول الله سبحانه: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحديد: ١٣].

وكان يقول: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إنَّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بَذلتُ لهم ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" ما شاء الله.

وقال: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه.

إنها والله حلاوة الإيمان التي أخبر عنها هذا الإمام فكان يقول: "إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة".

ولهذا يقول عنه تلميذه ابن القيم رحمه الله: "وعلم الله ما رأيت أحدا، أطيب عيشا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها،

ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرُّهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه. وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه: فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحا، وقوة ويقينا وطمأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها". انتهى

✍ وكم نجد من أمثال هؤلاء الذين تذوقوا حلاوة الإيمان.

فهانت عليهم أنفسهم وكل ما يملكون في سبيل الله عز وجل. لقد بلغ بهم صدق الإيمان وثباته أن تحمّلوا أشد أنواع العذاب دون أن يتزعزع يقينهم أو يتراجعوا عن دينهم.

وقد أخبرنا النبي ﷺ عن أحوال هؤلاء الصادقين في الإيمان ممن سبقونا، فقال: «**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ**». رواه البخاري عن خبَّاب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه.

فأين نحن من هؤلاء الرجال العظام، الذين ضربوا أروع الأمثلة في الثبات على الحق، ولم تهن لهم عزيمة في مواجهة الابتلاءات؟ لقد ضعُف إيماننا اليوم، وهانت علينا عزائمنا، وصار كثير منا لا يذوق حلاوة الإيمان إلا نادرًا، إلا من رحم الله ووفقه للصدق في القول والعمل.

ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنما نحن بحاجة إلى مراجعة أنفسنا وتجديد إيماننا، والاقتداء بمن سلفنا من الصالحين الذين بذلوا الغالي والنفيس في سبيل الله، طلبًا لرضاه ونيل جنته.

المبحث السادس: تفاوت المؤمنين في حلاوة الإيمان

لتعلم أيها الأخ الكريم أن هذه اللذة وهذه الحلاوة التي يشعر بها المؤمن في قلبه تتفاوت بين الناس حسب قوة إيمانهم وضعفه.

فهناك أوقات تزداد فيها هذه الحلاوة وتزداد الطمأنينة في القلب، وأوقات أخرى قد تقل وقد تُفقد في بعض الأحيان.

ومن هنا نجد أنَّ بعض الناس، حينما يبدأ في الاستقامة والإقبال على التمسك بدين الله، يشعر بفرح وسعادة لا مثيل لهما، فتتدفق الحلاوة في قلبه ويشعر بالقرب من الله. ولكن مع مرور الوقت، قد يشعر فجأة بتراجع هذه الحلاوة أو نقصها، وربما يفقدها تمامًا في بعض الأحيان. وهذا ليس أمرًا غريبًا، فقد أخبرنا النبي ﷺ عن ذلك، حيث قال: «**لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ**». رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه

وفي لفظ آخر:

«**وَلِكُلِّ شَرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَإِنَّ صَاحِبَهَا سَدَّدَ وَقَارَبَ فَارْجُوهُ، وَإِنْ أُشِيرَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فَلاَ تَعُدُّوهُ**».

فالعبد المؤمن يجد في بداية عمله إقبالا ونشاطًا عجيبًا وحلاوة ولذة للعمل لا توازيها لذة، وهذا من نعمة الله عليه أن أذاقه من نعيم الدنيا التي يتعرف بها على

شيء يسير من نعيم الآخرة ولهذا قال بعض السلف: "إنها تمرُّ بالقلبِ لحظاتٌ من السرور أقول: إن كان أهلُ الجنة في مِثْلِ هذا العيش، إنَّهم لفي عيشٍ طيِّبٍ"

فإذا عرف العبد ذلك اشتد نشاطه وعمله للدار الآخرة التي يجد فيها النعيم المقيم.

وهذا النشاط والسرور وحلاوة الطاعة في بدايتها أمرٌ ملاحظ عند العباد، فتجد أحدهم إذا أقبل على طلب العلم وجد مِن اللذة والحلاوة ما يقوده إلى الإقبال والانكباب على حِلق العلم وقراءة الكتب وحضور الدروس ليل نهار بشراهة عجيبة، ثم لا يدري إلا وقد فترت عزيمته وضعفت همته وذهب ذلك الشره الذي كان عنده.

وكذا تجِد الواحد مِن الناس الذي فتح الله عليه في قيام الليل، فتراه يقوم ويزداد قيامه ويتلذذ بذلك القيام أعظم تلذذ، ثم لا يدري إلا وقد ضعُف وأصابه الفتور.

وتجِد الواحد مِن الناس يدخل عليه شهر رمضان فيقبل بنشاط عجيب على قراءة القرآن والذكر والقيام وسائر الطاعات، ويجد لذة وحلاوة في قلبه لا يستطيع أن يصفها، ولا أن يُعبِّر عنها، وما هي إلا أيام حتى يضعف ويفتر.

وغير ذلك مِن الأمور والأعمال التي يبدأها المؤمن بنشاط ثم يضعف ويفتر.

ولله عز وجل في هذا الضعف والفتور بعد النشاط والشره مِن الحِكم ما الله به عليم، وما لا يحصي فوائده إلا خالق الخلق سبحانه.

ولا بد أن نقف مع شيء مِن هذه الحكم لنعرف مدى فضل الله ونعمته علينا، ولتزداد همتنا في مرضاته، وفي طلب محبة الله عز وجل.

فمن هذه الحِكم:

١) أن يعلم العبد السائر إلى ربه ضعفه وعجزه وافتقاره إلى ربه.

٢) أنَّ بها يتبين الصادق من الكاذب، فالصادق يستمر على نفس الطريق ويجاهد نفسه للعودة إلى ما كان عليه، والكاذب ينقلب على عقبيه.

٣) أن يعلم العبد أنَّ دوام الحال مِن المُحال وأن الدنيا طُبِعت على كدر، وأن دوام السرور والسعادة والنعيم ليس إلا في الجنة، فيشتاق لها ويبذل نفسه في سبيل الخلوص إليها.

٤) أنَّها تمحيصٌ للقلوب واختبار لها.

٥) أنَّه يسعى في تكميل نفسه فإنَّه في طريق سيره إلى الله سبحانه غير راضٍ عن هذه النفس، وهذا يُخرج من قلبه ونفسه مِن العجب ما الله به عليم، فلو لم يكن إلا هذا لكفى به والله.

٦) أنَّ العبد في حال ضعفه يتذكر ما كان عليه مِن الخير، فيتحسر عليه ويسعى للوصول إليه مرة أخرى فإذا علم الله صدق نيتِه أذاقه حلاوة أعظم مما ذاقها في المرة السابقة.

٧) أنَّ الاستمرار على حال واحدٍ قد يأخذُه ذلك إلا أن يتعداه إلى الغلو، ومجاوزة الحد بسبب أنَّه يريد أن يزيد في عبادته.

٨) وغير ذلك من الحكم التي لا يحصيها إلا الله سبحانه وتعالى.

ومع ذلك، فإنَّ العبد المؤمن الذي يمر بهذه الفترات ويشعر بفقدان حلاوة الإيمان ينبغي له أن يسعى جاهدًا لاستعادة تلك الحالة التي كان عليها من الفرح والطمانينة.

عليه أن لا ييأس ولا يستسلم، بل يبحث عن الأسباب والوسائل التي تعيده إلى تلك الحال، ويستخدم الأدوية الشرعية التي تعين قلبه على استعادة نشاطه وتخفيف فتوره بإذن الله تعالى، فإنَّ هذه الوسائل تعيد له ما فقده من حلاوة الإيمان وتجدد في قلبه نوره وحيويته.

وفي المبحث التالي، سنستعرض بعض الوسائل والأسباب التي تسهم في علاج النفوس من ضعفها، وتعينها على النهوض من فتورها، عسى أن تستعيد بريقها وجمال إيمانها، وتعود لتذوق حلاوته كما كانت، بإذن الله تعالى.

المبحث السابع: الأدوية التي يُتحصَّل بها حلاوة الإيمان

في هذا المبحث، سنستعرض بإذن الله تعالى أمورًا يجب على المؤمن السعي إلى العمل بها ليذوق حلاوة الإيمان ويتذوق لذتها في قلبه، فتزداد بذلك قوته وصلابته.

ولكن قبل أن نذكر شيئًا مما ينبغي على العبد المؤمن السعي إليه ليذوق حلاوة الإيمان، لا بد أن ننبه على أمرٍ في غاية الأهمية:

وهو أنه يجب على من أصابه الفتور بعد النشاط والاجتهاد أن يظل ملتزمًا بالسنة وألا يترك الفريضة ولا يقترف المحرمات، فذلك هو الواجب عليه في حال فتوره.

قال شيخ الإسلام بعد أن ذكر حديث لكل عملٍ شرَّة:

وفي السنن عنه أنه قال: "**لكل عامل شِرَّةٌ وفتر، فمن كانت فترته إلى سُنَّة فقد اهتدى، ومن أخطأَها فقد ضَلَّ**". وفي لفظ: "**ولكل شِرَّةٍ فَتْرَة؛ فإن كان صاحبها سَدَّدَ وقارب فارجوه، وإن أُشير إليه بالأصابع فلا تَعُدُّوهُ**".

فقيل للحسن البصري لما رَوَى هذا الحديث: "إنَّك إذا مَرَرت بالسُّوق فإنَّ النَّاس يُشِيرون إليك؟ فقال: "لم يُرِد ذلك، وإنما أرادَ المُبْتَدِع في دينه والفاجر في دنياه". وهو كما قال الحسن رضي الله عنه، فإنَّ من الناس من يكون له شدَّة ونشاط وحدة واجتهاد عظيم في العبادة، ثم لابُدَّ من فُتُور في ذلك.

وهم في الفَتْرَة نوعان:

منهم: من يلزم السنَّة فلا يترك ما أمر به، ولا يفعل ما نُهِيَ عنه بل يلزم عبادة الله إلى الممات؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [سورة الحجر: ٩٩]، يعني الموتَ، قال الحسن البصري: لم يَجْعَل الله لعباده المؤمنين أجلاً دون الموت.

ومنهم: من يخرج إلى البدعة في دينه أو فُجُور في دنياه حتى يُشير إليه الناس، فيقال: هذا كان مجتهدًا في الدِّين ثم صار كذا وكذا. فهذا مِمَّا يخاف على من عَدَل عن العبادات الشرعية إلى الزيارات البدعية. ولهذا قال أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود: "اقتصاد في سُنَّة خير من اجتهادٍ في بِدْعة". انتهى مسألة في المرابطة بالثغور (٢/ ٧٢)

وقال ابن القيم في مدارج السالكين (٣/ ١٢٦): "فتخلل الفترات للسالكين أمر لازم لا بد منه فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد ولم تخرجه من فرض ولم تدخله في محرم رجيَ له أن يعود خيرًا مما كان". اهـ

وقال (١/ ٢٦٧):

فإن قلت: كل مجد في طلب شيء لا بد أن يعرض له وقفة وفتور ثم ينهض إلى طلبه قلت: لا بد من ذلك ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليجم نفسه ويعدها للسير فهذا وقفته سير ولا تضره الوقفة فإن لكل عمل شرة ولكل شرة فترة.

وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه وجاذب جذبه من خلفه فإن أجابه أخره ولا بد فإن تداركه الله برحمته وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره: نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع ووثب وجمز واشتد سعيا ليلحق الركب وإن استمر

مع داعي التأخر وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة وإجابة داعي الهوى حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دركا وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض فإنها أخطر منه وأصعب وبالجملة: فإن تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه وتخليصه وإلا فهو في تأخر إلى المهات راجع القهقرى ناكص على عقيبه أو مول ظهره ولا قوة إلا بالله والمعصوم من عصمه الله. اهـ

فعليك، أيها العبد المطيع لربه، إذا أصابك شيء من الفتور في أي باب من أبواب الطاعات، أن تلتزم بهذين الأمرين الأساسيين:

الأمر الأول: ألا تترك الواجبات التي فرضها الله عليك.

الأمر الثاني: أن تبتعد عن اقتراف المحرمات التي حذر منها الشرع.

ثم بعد ذلك، تسعى في الأعمال التي سنذكرها، وهي كالعلاج الذي يتعاطاه المريض ليعود إلى حالته الصحية، ويستعيد لذة الطاعة وحلاوتها التي فقدها.

فحال المؤمن في هذه المرحلة كحال من أصيب بمرض فاختلت حواسه، وأصبح يذوق الطيبات والسكريات ولكنها صارت مرَّة في فمه، فيسعى جاهدًا للعلاج حتى يعود مذاق الطيبات إلى طبيعتها ويشعر بحلاوتها كما كان في أول مرة.

فما يزال المؤمن الذي تكدر حاله وفقد حلاوة الإيمان يعالج نفسه ويجاهدها، حتى يمُنَّ الله عليه بعودته إلى ما كان عليه وأحسن مما كان، وهذا دأبه في كلِّ مرة يصيبه هذا الفتور، فهو يتقلب ما بين صِحَّةٍ، وبين مَرَضٍ يسعى في علاجه.

ولنذكر، بإذن الله تعالى، ما يسر الله من الأدوية النافعة التي تعين العبد على نيل حلاوة الإيمان أو استرجاعها بعد أن فقدها، إن كان قد ذاقها سابقًا.

وهذه الأدوية، التي هي مفاتيح لأبواب الإيمان والسكينة، مستقاة من كلام أهل العلم الربانيين الذين كتبوا في هذا الشأن وقدموا لنا دروسًا ثمينة حول كيفية تحصيل حلاوة الإيمان والتمسك بها.

نسأل الله أن يجعل هذه الأدوية سببًا في زيادة إيماننا، وأن يفتح قلوبنا لفهمها والعمل بها، حتى نعيش في نورها ونتمتع بثمراتها في الدنيا والآخرة.

والحمد لله.

العلاج الأول: معرفة الله تعالى

إنَّ أعظم النعم التي ينعم الله بها على عباده المؤمنين هي نعمة الإيمان، إذ بها يحيا القلب ويطمئن، ويقوى على طاعة الله وعبادته، كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [سورة الحجرات: ٧].

ومع ذلك، فقد يضعف الإيمان في قلب المسلم ويَبلى بمرور الزمن، بسبب الانشغال بمتاع الدنيا وأسباب أخرى. وقد أخبر النبي ﷺ عن هذا فقال: ((**إن الإيمان ليَخْلَق في جوف أحدكم كما يَخْلَق الثوب – أي يكاد أن يبلى في قلب أحدكم – فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم**)). (١)

ولا سبيل لتجديد هذا الإيمان وتقويته إلا بمعرفة الله تعالى، فهي التي تحيي القلوب وتنبهها من سباتها العميق.

فمعرفة الله هي أصل حلاوة الإيمان التي يسعى المسلم لنيلها، ولا تُنال هذه الحلاوة إلا بمعرفة الله تعالى. ولهذا يقول بعض السلف: "مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها". قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: "محبة الله تعالى ومعرفته وذكره".

فمعرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه هي أعظم نعيم في الدنيا، والنظر إليه سبحانه هو أعظم نعيم في الآخرة. وهذان النعيمان هما ما طلبه النبي ﷺ من ربه،

---

(١) رواه الطبراني والحاكم عن ابن عمرو، وصححه الألباني في "الصحيحة" (١٥٨٥).

إذ قال: «**اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ**».

ومن عرف الله حق المعرفة، اشتاق للقائه، ونال بذلك لذة الدنيا ونعيمها، فسبحان من جمع لأوليائه بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة.

ومن حُرم هذه اللذة في الدنيا فهو المحروم حقًا؛ إذ فقد دخول جنة الدنيا، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((إنَّ في الدنيا جنة، من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة)).

والمقصود بذلك أنَّ أعظم لذات الدنيا هو السبيل الموصل إلى أعظم لذة في الآخرة.

أما من لم يعرف ربه، فيبقى تائهًا في هذه الدنيا، يقوده هواه، وتتلاعب به نفسه، ويجمع عليه الشيطان بخيله ورَجِله، فيصير صريع النفس والهوى والشيطان.

وأما من عرف الله حق المعرفة، حفظه سبحانه بما يحفظ به أولياءه، وصانه بما يصون به عباده المخلصين.

فلنسعَ جاهدين إلى معرفة ربنا وخالقنا ومولانا، فهي السبيل لنيل حلاوة الإيمان ونعيم الدنيا والآخرة.

فصلٌ:

وأعظم باب لمعرفة الله سبحانه هو باب التفكر، وأعلى الفِكَر وأجلُّها وأنفعِها ما كان لله والدار الآخرة. (١)

فما كان لله أنواع:

أحدها: التفكر في آياته المنزلة، وتعقُّلها وفهم مراده منها.

الثاني: التفكر في آيات الله المشهودة.

الثالث: التفكر في آلائه، وإحسانه، وإنعامه على خلقه بأصناف النعم، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه.

فأما النوع الأول: وهو التفكر في آيات الله المنزلة، وتعقُّلها وفهم مراده منها؛ فهذا الذي أنزله الله لأجلها، لا لمجرّد تلاوتها، بل التلاوة وسيلة.

ولهذا قال بعض السلف: أُنزِل القرآنُ لِيُعمَل به، فاتخذوا تلاوته عملاً.

فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ص: ٢٩].

ويقول سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة محمد: ٢٤].

فكيف يعرِف العبدُ ربَّه وهو لا يتدبر كلامه سبحانه وتعالى، ولا يقف عند آياته، وهو الذي يأخُذ بشغاف القلوب إلى محبة الله سبحانه وتعالى وإلى حلاوة الإيمان.

---

(١) انظر لهذا كله الداء والدواء لابن القيم ط المجمع (١/ ٣٥٦)

قال ابن القيم رحمه الله: "قراءة آية بتفكُّر وتفهُّم خيرٌ من قراءة ختمة بغير تدبُّر وتفهُّم، وأنفع للقلب، وأدعَى في حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن".

وقال: وَأَمَّا التَّأَمُّلُ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ تَحْدِيقُ نَاظِرِ الْقَلْبِ إِلَى مَعَانِيهِ، وَجَمْعُ الْفِكْرِ عَلَى تَدَبُّرِهِ وَتَعَقُّلِهِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِإِنْزَالِهِ، لَا مُجَرَّدُ تِلاَوَتِهِ بِلاَ فَهْمٍ وَلَا تَدَبُّرٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة ص:٢٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة محمد:٢٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [سورة المؤمنون:٦٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [سورة الزخرف:٣].

وَقَالَ الْحَسَنُ: نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيُتَدَبَّرَ وَيُعْمَلَ بِهِ. فَاتَّخَذُوا تِلاَوَتَهُ عَمَلاً.

فَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَقْرَبَ إِلَى نَجَاتِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ فِيهِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ عَلَى مَعَانِي آيَاتِهِ، فَإِنَّهَا تُطْلِعُ الْعَبْدَ عَلَى مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَذَافِيرِهِمَا، وَعَلَى طُرُقَاتِهِمَا وَأَسْبَابِهِمَا وَغَايَاتِهِمَا وَثَمَرَاتِهِمَا، وَمَآلِ أَهْلِهِمَا، وَتَتُلُّ فِي يَدِهِ مَفَاتِيحَ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ، وَتُثَبِّتُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشَيِّدُ بُنْيَانَهُ وَتُوَطِّدُ أَرْكَانَهُ، وَتُرِيهِ صُورَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي قَلْبِهِ، وَتُحْضِرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَتُرِيهِ أَيَّامَ اللَّهِ فِيهِمْ، وَتُبَصِّرُهُ مَوَاقِعَ الْعِبَرِ، وَتُشْهِدُهُ عَدْلَ اللَّهِ وَفَضْلَهُ، وَتُعَرِّفُهُ ذَاتَهُ، وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ، وَمَا يُحِبُّهُ وَمَا يُبْغِضُهُ، وَصِرَاطَهُ الْمُوصِلَ إِلَيْهِ، وَمَا لِسَالِكِيهِ بَعْدَ الْوُصُولِ وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَقَوَاطِعَ الطَّرِيقِ وَآفَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ النَّفْسَ وَصِفَاتِهَا، وَمُفْسِدَاتِ الْأَعْمَالِ وَمُصَحِّحَاتِهَا وَتُعَرِّفُهُ طَرِيقَ أَهْلِ الْجَنَّةِ

وَأَهْلِ النَّارِ وَأَعْمَالَهُمْ، وَأَحْوَالَهُمْ وَسِيَاهُمْ، وَمَرَاتِبَ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَأَقْسَامَ الْخَلْقِ وَاجْتِمَاعَهُمْ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَافْتِرَاقَهُمْ فِيمَا يَفْتَرِقُونَ فِيهِ.

وَبِالْجُمْلَةِ تُعَرِّفُهُ الرَّبَّ الْمَدْعُوَّ إِلَيْهِ، وَطَرِيقَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَمَا لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ. اهـ مدارج السالكين (١/ ٤٤٩)

وهكذا كان حال النبي ﷺ، يقف عند الآيات متأملاً، لا يتجاوزها قبل أن يغوص في معانيها ويتدبرها حق التدبر. وقد بلغ من حرصه على سماع القرآن وتذوقه، أنه طلب من ابن مسعود رضي الله عنه أن يقرأ عليه، فقال له: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ: « **نَعَمْ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**» فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ قَالَ: «**حَسْبُكَ الآنَ**» فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ

فيا لله من هذا النبي الكريم ﷺ، كيف تفيض عيناه بدموع الإيمان والخشية من آياتٍ قرأناها مرارًا، وحاولنا أن نتأثر بها، ولكننا لم نصل لعمق أثرها في قلبه الشريف. إنه يقف عندها بقلب ملؤه الخشوع والعظمة لله، ونحن نحاول أن نقتدي، فنجد أنفسنا في حاجة إلى تجديد إيماننا وتَعَلُّم كيف نستشعر هذه المعاني العميقة التي عاشها النبي ﷺ، فهو المثال الأسمى في تذوق معاني القرآن والعيش في أجوائه الإيمانية.

وقام ﷺ ذات ليلة بآية واحدة من القرآن، يرددها ويبكي حتى الصباح، وهي قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [سورة المائدة: ١١٨]. (١) يرددها بخشوع يعكس عمق محبته لله وحرصه على أمته.

وفي موقف آخر ترويه عائشة رضي الله عنها فتقول: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي**» قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، قَالَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾** [سورة آل عمران: ١٩٠]. (٢)

وذلك لما فيها من دعوة لتدبر عظمة خلق الله وعجيب صنعه.

وهذا أيضًا كان حال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد مر ليلةً بدار أحد المسلمين، فسمع رجلاً يتلو من سورة الطور حتى بلغ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [سورة الطور: ٧-٨]. فأقسم عمر: "قسمًا ورب الكعبة حق"،

---

(١) رواه النسائي وغيره عن أبي ذر.

(٢) رواه ابن حبان عن عائشة.

وتأثر حتى نزل عن حماره وأسند ظهره إلى جدار، ثم مكث أيامًا مريضًا لا يدري الناس ما به من شدة تأثير الآية عليه.

وكانت عائشة رضي الله عنها تقوم الليل، تردد آيات من سورة الطور وتبكي: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [سورة الطور: ٢٧].

هذه الآيات إلى هذه اللحظة وكثير من الناس لا يفقه معناها، وإلى الله المشتكى.

قال عبد الله بن عروة بن الزبير: قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا القرآن؟ قالت: «تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم كما نعتهم الله»، قاصدة بذلك قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الزمر: ٢٣].

روى ابن أبي الدنيا من حديث عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، قال: سمعت عبد الله بن حنظلة يومًا وهو على فراشه، وعدته من علته، فتلا رجلٌ عنده هذه الآية: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٤١].

فبكى حتى ظننت أنَّ نفسه ستخرج، وقال: "صاروا بين أطباق النار"، ثم قام على رجليه، فقال قائل: يا أبا عبد الرحمن اقعد، قال منعني القعود ذكرُ جهنم ولعلي أحدهم.

قال ابن أبي مليكة: صحبت ابن عباس - يعني في السفر - فإذا نزل قام شطر الليل ويرتل القرآن حرفا حرفا ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب.

ومن حديث عبد الرحمن بن مصعب أن رجلا كان يوما على شط الفرات فسمع قارئًا يتلو: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾ فتمايل، فلما قال التالي: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ سقط في الماء فمات.

قال محمد بن حجادة: قلت لأم ولد الحسن البصري ما رأيت منه - أي الحسن البصري - فقالت: رأيته فتح المصحف، فرأيت عينيه تسيلان وشفتيه لا تتحركان.

هذه كانت حال قلوبهم، تقرأ القرآن فتتأثر خشيةً وحياءً، كيف كانت قلوبهم ترتعش، وكيف كانت دمعاتهم تفيض على خدودهم.

فحريٌّ بنا أن نتأمل ونتأسى بهم، وأن نقف عند آيات الله وقفة المتدبر المتعظ، فنسأل الله أن يحيي قلوبنا بالقرآن كما أحيا قلوبهم.

فصلٌ:

ينبغي أن ندرك معنى التدبر في كتاب الله سبحانه وتعالى، فقد ضلَّ أقوامٌ عندما جهلوا هذا المفهوم، فظنّوا أنَّ مجرد البكاء عند قراءة القرآن يُعدُّ كافيًا للتدبر، فاستسلموا لذلك وأساءوا العمل.

وقد أوضح العلامة الشنقيطي في "أضواء البيان" (٧/ ٤٢٩) معنى التدبر بقوله: "تدبر آيات هذا القرآن العظيم يعني تصفحها، وفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها". اهـ

ويشير ابن القيم إلى قول ابن عباس وابن مسعود في أن القرآن نزل ليُعمل به، وليس لقراءته وحسب، قائلاً: " الْمَقْصُودُ مِنَ الْقِرَاءَةِ فَهْمُهُ وَتَدَبُّرُهُ، وَالْفِقْهُ فِيهِ وَالْعَمَلُ بِهِ، وَتِلاَوَتُهُ وَحِفْظُهُ وَسِيلَةٌ إِلَى مَعَانِيهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: "نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخَذُوا تِلاَوَتَهُ عَمَلاً"، وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمُ الْعَامِلُونَ بِهِ، وَالْعَامِلُونَ بِمَا فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَحْفَظُوهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ.

وَأَمَّا مَنْ حَفِظَهُ وَلَمْ يَفْهَمْهُ وَلَمْ يَعْمَلْ بِمَا فِيهِ، فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ وَإِنْ أَقَامَ حُرُوفَهُ إِقَامَةَ السَّهْمِ". اهـ

وخلاصة الأمر أنَّ التدبر يقوم وينبني على أمرين رئيسيين لا بد منهما:

الأول: تعلمه وفهم معانيه والإيمان به. الثاني: العمل بما جاء فيه.

وبدون هذين الأمرين، لا يُعتبر القارئ متدبرًا، حتى لو بكى عند تلاوته وأبكى.

يقول الحسن البصري: "إن هذا القرآن قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، ولم يأتوا الأمر من أوله. قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ص: ٢٩]. وما تدبُّر آياته إلا اتِّباعُه؛ ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كله، فما أسقط منه حرفًا وقد والله أسقطه كله؛ ما ترى القرآن له في خلق ولا عمل، وحتى إنَّ أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نَفَس، والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة، ومتى كانت القراء تقول مثل هذا؟ لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء. (١)

فالحسن البصري يحذر من عدم أخذ أمر القرآن من أوله، وأوله هو تعلم ما فيه من إيمان وعمل، ليأتي بعد ذلك الحفظ على قاعدة سليمة فيزداد به القلب إيمانا.

ولقد أتى رجلٌ أبا الدرداء فقال: إن ابني جمع القرآن، فقال: اللهم غفرًا، إنما جمع القرآن من سمع له وأطاع.

وأخرج ابن ماجه، والبيهقي في السنن الكبرى عن أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيِّ، عَنْ جُنْدُبٍ قَالَ: كُنَّا غِلْمَانًا حَزَاوِرَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيُعَلِّمُنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ يُعَلِّمُنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا، وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تُعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ.

وجاء في مُصنف ابن أبي شيبة عن أبي عبد الرحمن، قال: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات،

---

(١) انظر مختصر قيام الليل، للمروزي، ص (١٧٦)، والزهد لابن المبارك، ص (٢٧٤).

ولا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العمل والعلم، قال: فعلمنا العمل والعلم.

وروى الطبراني في الأوسط عن القاسم بن عوف قال: سمعت عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، يَقُولُ: لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرٍ وَأَحَدُنَا يَرَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَنَتَعَلَّمُ حَلاَلَهَا وَحَرَامَهَا، وَأَمْرَهَا وَزَاجِرَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ نُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهَا، كَمَا تَعَلَّمُونَ أَنْتُمُ الْيَوْمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، وَلَا يَدْرِي مَا أَمْرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ وَيَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ.

وقال شيخ الإسلام في مقدمة في أصول التفسير (ص: ٩):

فصل [في عناية الصحابة والتابعين بمعاني القرآن]

يجب أن يُعلم أن النبي ﷺ بَيَّنَ لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ﴾ يتناول هذا وهذا.

وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا. ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة.

وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَلَّ في أعيننا. وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين، قيل: ثماني سنين، ذكره مالك.

وذلك أن الله تعالى قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [سورة ص: ٢٩].

وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [سورة محمد: ٢٤]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [سورة المؤمنون: ٦٨]. وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [سورة يوسف: ٢] وعقل الكلام متضمن لفهمه.

فمنهج السلف في تعليم الدين الإسلامي أن يُبدأ بغرس الإيمان في القلوب، لأنَّ الإيمان هو الأساس الذي تُبنى عليه العقيدة والأعمال. وبعد ذلك، يُنتقل إلى تعلُّم أحكام القرآن الكريم وفهم معانيه، إذ يُصبح الحفظ في هذه الحالة بمثابة تتويج لهذا البناء المتين، فيزداد الحافظ إيمانًا ويعمق فهمه لدينه.

أما بالنسبة للصبيان الذين لا تبلغ عقولهم فهم القرآن ودراسته، فإنَّ البداية معهم تكون بتحفيظهم القرآن الكريم مع الحرص على غرس مبادئ الإيمان في نفوسهم بشكل تدريجي ومناسب لأعمارهم.

وبهذا النهج، يجمع الطفل بين الحفظ والفهم مع مرور الوقت، فينشأ وقد تأسس على الجمع بين العلم بالقرآن والعمل بما فيه، وهو ما يُؤهله لفهم الدين والعمل به على الوجه الأكمل عند بلوغه.

فالأول الأصل الذي ينبغي على من قدر عليه، والثاني سداد ومقاربة؛ فما لا يدرك كلُّه لا يترك جلُّه.

وأما النوع الثاني: فهو التفكر في آيات الله المشهودة والاعتبار بها، والاستدلال بها على أسمائه وصفاته، وحكمته وإحسانه، وبرّه وجوده.

وقد حضَّ الله سبحانه وتعالى عباده على التفكر في آياته الكونية وتدبُّرها وتعقُّلها، وذمَّ الغافل عن ذلك، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١].

في هذه الآيات الكريمة، يوجّه الله سبحانه وتعالى المؤمنين إلى ضرورة التفكر والتدبر في خلقه، ويصفهم بأنهم أصحاب العقول الراجحة (أُولي الألباب) الذين لا يكتفون بعبادة ظاهرية، بل يغوصون في عمق التأمل في آيات الله الكونية، مما يعزز إيمانهم ويزيدهم قربًا من الله.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]. ففي هذه الآية نجد أن الله جل جلاله يشير إلى مظاهر كونية عظيمة، مثل خلق السماوات الشاسعة والأرض المستقرة، وتعاقب الليل والنهار بشكلٍ منظم، وكلها آيات واضحة تدل على قدرة الله وحكمته وإتقانه في الخلق.

فهذا الترتيب البديع والتناسق المحكم ليس مجرد مظهر، بل هو دلالة تامة على وجود الله، وعلامة تدعو الإنسان العاقل للتفكر في عظمة الخالق ووحدانيته.

ثم يصف الله المؤمنين بخصائصٍ عظيمة في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾، أي أنَّ ذكرهم لله لا ينحصر في وقتٍ معين أو حالٍ محدد، بل هو ذكر مستمر في كافة أوضاعهم وأحوالهم، سواء كانوا قائمين، أو قاعدين، أو مضطجعين. وهذا الذكر الدائم يعبر عن تعلقهم القلبي بالله وشعورهم الدائم بحضوره، مما ينعكس على سلوكهم وأخلاقهم.

ومن مظاهر تدبرهم، قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، حيث يظهر من هذه الآية أنَّ التدبر والتفكر لا يقتصر على العبادات التي أمرنا بها فقط، بل يشمل أيضًا التأمل في خلق الله.

وهذا التأمل يقودهم إلى الإقرار بأن هذا الكون العظيم لم يُخلق عبثًا، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ فهم يدركون بوعيهم أن وراء هذا الخلق البديع حكمةً عظيمة، وأن كل ما في الكون مسخر لخدمة الإنسان وابتلائه ليظهر منه الصالح من الطالح.

ويأتي دعاؤهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ ليعكس قمة التواضع والخضوع لله.

فمع اعترافهم بعظمة خلقه، يدركون أيضًا ضعفهم وحاجتهم لحمايته وعفوه. فهم يتوجهون إلى الله متضرعين، سائلين إياه النجاة من عذابه، وهذا الدعاء يمثل الثمرة الحقيقية للتفكر، حيث يُنتج في القلب خشيةً وتقوى تدفع المؤمن إلى الاستقامة والعمل الصالح.

وبهذا، تُظهر الآية أن الإيمان ليس مجرد مشاعر عابرة، بل هو علاقة متجددة قائمة على التفكر والتأمل والتذكر، وهذا هو أساس التفكر الذي أرشدنا إليه القرآن الكريم.

قال العلامة السعدي رحمه الله:

"ومن أسباب الإيمان ودواعيه، التفكر في الكون في خلق السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات المتنوعة، والنظر في نفس الإنسان وما هو عليه من الصفات فإن ذلك داع قوي للإيمان، لما في هذه الموجودات من عظمة الخلق الدال على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها من الحسن والانتظام والإحكام الذي يحير الألباب، الدال على سعة علم الله وشمول حكمته وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله وجوده وبره، وذلك كله يدعوا إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره واللهج بذكره وإخلاص الدين له وهذا هو روح الإيمان وسره". التوضيح والبيان (ص٣١)

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧):

"وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى، وبوحدانيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله، من عموم قدرته وعلمه، وكمال حكمته ورحمته، وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه فبهذا تعرَّف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته. اهـ

وأما النوع الثالث: لهو التفكر في آلائه، وإحسانه، وإنعامه على خلقه بأصناف النعم، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين (ص: ٣١٧):

"فهذا الباب يدخُل منه كلُّ أحدٍ إلى محبَّته سبحانه وتعالى؛ فإنَّ نعمته على عباده مَشهودة لهم يتقلَّبون فيها على عدد الأنفاس واللَّحظات، وكلَّما سافَر القلبُ فيها ازدادت محبَّتُه وتأكَّدَت، ولا نهاية لها، فيقف سفَرُ القلب عندها، بل كلَّما ازداد فيها نظرًا ازداد فيها اعتبارًا وعجزًا عن ضبط القليل منها، فيستدل بما عرفَه على ما لم يعرِفْه، والله سبحانه وتعالى دعا عبادَه إليه من هذا الباب". اهـ

وإنَّ الأمر اللافت للانتباه أن هناك العديد من الآيات القرآنية التي تحثنا على القيام بهذا العمل العظيم وهو التفكر في نعم الله وآلائه وإحسانه لعباده قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾ [سورة فاطر: ٣].

وقال: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [سورة البقرة: ١٩٨].

فإنَّ التفكر في النعم التي تحيط بنا من كل جانب وربطها بالمنعم له دور كبير في استثارة العقل، وتأجيج مشاعر الامتنان لله عز وجل، ومن ثم الخروج من حالة الغفلة إلى اليقظة والانتباه، لذلك كان تذكرُ النعم من أفضل العبادات.

وكم نرى مِن نعم الله عز وجل التي تغافل عنها كثيرٌ من الناس، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [سورة النحل: ١٨].

فكم مِن نعمةٍ يتقلب بها العبد وهو لا يشعر بها، ولا يَعُدَّها مِن النعم، وقف مع ما سنذكِّرك به مِن نعمٍ غَفِلت عنها، فغاب عنك شُكرها.

ومن هذه النعم العظيمة التي يَغمُرنا الله بها:

✓ نعمة الإيجاد وأن جعلك من بني آدم.

أن جعل الله وجودك في هذه الحياة، واختارك من بين المخلوقات العديدة ليجعل منك إنسانًا من بني آدم. فكم لله من فضل وكرم في ذلك! فقد شاء سبحانه أن يخلق من العدم مخلوقات لا يحصيها إلا هو سبحانه، وكنتَ أنت من ضمن هذه المخلوقات.

ثم اصطفاك بأن منحك نعمة العقل، وأنعم عليك بنفخة من روحه، فشملتك بذلك كرامة عظمى. يقول الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الإسراء: ٧٠].

لقد كان من الممكن أن يجعلك الله شيئًا آخر غير الإنسان، كأن تكون حجرًا جامدًا، أو طائرًا، أو شجرة، أو حبة رمل في صحراء، أو كائنًا من مخلوقات الله التي لا تملك تمييزًا ولا عقلاً. لكنه الفضل العظيم من الله عز وجل الذي اختارك من بين جميع مخلوقاته وكرّمك وفضلك عليهم بالعقل، وبالمسؤولية، وبالقدرة على معرفة الحق والشكر.

فلا بد أن تعرف قدر هذه النعمة الكبرى، وتدرك عظم المسؤولية المترتبة عليها، فتشكر الله على فضله وتستعمل هذه الكرامة فيما يرضيه، عسى أن تكون من الشاكرين الذين يزيدهم الله من فضله وكرمه

✓ نعمة وجودك في هذا الزمان والمكان.

فمن النعم العظيمة التي أكرمك الله بها، نعمة وجودك في هذا الزمان والمكان.

فلم يختَر أحدٌ من البشر زمانه أو مكانه أو بيئته، ولا أبويه أو شكله الذي تَحلّ فيه روحه. فالله عز وجل هو من يختار لكلٍّ منا الزمان والمكان الأنسب لأداء الامتحان الدنيوي، دون أن يُظلم أحد من خلقه؛ إذ إن الله تعالى قد وهب للإنسان العقل والفطرة ليتمكن، في أي وقت وأي مكان، من الاستدلال على وحدانية الله عز وجل. وإلى جانب ذلك، فقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب السماوية ليبين للبشر الطريق الصحيح.

ومع ذلك، فإنَّ نزولك في هذا الزمان والمكان الذي تعيش فيه له ميزات عظيمة، تشير إلى فضل الله عليك واجتبائه لك.

تخيل أنك قد وُلدت في زمن قوم لوط، لتجد نفسك في بيئة تنتشر فيها أعظم الفواحش، فكيف كنت ستنجو من تأثير تلك البيئة؟ أو لو كنت من أبناء قوم فرعون، أو عاد، أو ثمود، أو ولدت وسط فرقةٍ من فرق الضلال التي ظهرت في فترات من التاريخ الإسلامي كالقرامطة وغيرهم، ممن ضل عن الدين الحق، لكانت رحلتك للوصول إلى الحق أشد وأصعب.

أليس في تجنيبك تلك الابتلاءات نعمة عظيمة من الله تستحق الشكر؟

وإن كنت قد وُلدت في هذا الزمان، فتصوّر أنك وُلدت في مكان آخر؛ في أعماق أدغال إفريقيا، أو وسط مجتمعات الإسكيمو، أو في بيئات تتعرض للأعاصير أو البراكين أو الزلازل.

أو تأمل لو كنت قد وُلدت في أماكن تُضطهد فيها عقيدتك، كمناطق تركستان أو كشمير أو بورما؛ هناك حيث المسلمون يؤدون امتحانًا شاقًا من الصبر والاحتساب، وهذا ابتلاء عظيم لا يُوفَّى أجره إلا للصابرين كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [سورة الزمر: ١٠]. لقد جنّبك الله شدة هذا الابتلاء، فاحمده على ذلك.

وتخيل أيضًا لو أنك وُلدت لأبوين غير مسلمين؛ يهوديين، نصرانيين، بوذيين، ملحدين أو هندوس، كيف كنت ستعرف الحق أو تتبعه؟

فما أصعب الوصول إلى الدين الصحيح في مثل تلك البيئات؛ إلا على من هداه الله ووفقه وأنعم عليه بالإسلام.

وأما أنت فقد أنعم الله عليك بأن جعل أسرتك ومحيطك في مجتمع مسلم يساعدانك في الوصول إلى دين الحق، ومن أبوين مسلمين.

فما أعظمها من نعمة، فاعرف قدر هذه النعمة، واشكر الله على أنه جعلك في هذا الزمان والمكان، وهيأ لك السبل التي تعينك على طاعته واتباع هديه، عسى أن تكون من الشاكرين.

✓ نعمة الهداية

يا من أكرمك الله عز وجل بنعمة الإيمان والتقوى، هل تدرك سرّ هذا الفضل العظيم الذي جعلك من أهل المساجد، وأهل الصلاة، وأهل الصيام، والذكر، والصدقة، وفعل الخير؟

إنه الله الذي حبّب إلى قلبك الإيمان، وفتح له طريق الهداية، وكرّه إليك طرق الضلال والغواية. انظر حولك إلى أقرانك، زملائك، وجيرانك، كم منهم يشاركك ذات التدين والالتزام؟ أتظن أن لك يدًا في ذلك؟ لا، والله، إنه محض فضل الله ورحمته التي اختصك بها، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [سورة النور: ٢١].

إن كل صلاة تؤديها، وكل صيام تتقرب به، وكل صدقة تبذلها، لم تكن إلا بإعانة الله وتوفيقه. فقد كان من الممكن أن يصيبك الفتور أو العجز، أو أن تتثاقل عن القيام بالعبادة، ولكن الله سبحانه هو من أزال عنك العوائق وشرح صدرك للقيام بالطاعات. ليس بينك وبين ترك الصلاة والصيام إلا أن يتركك الله لنفسك

وحبّها للراحة وكرهها للتكليف. فكلما قمت لعبادة، فاعلم أن الله سبحانه قد أعانك عليها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة سبأ: ٥٠].

فكن واعيًا لقدر هذه النعمة الجليلة، واذكرها دومًا بشكرٍ خالص لله، فهي فضل منه وإكرام.

✓ تسخير الكون لك

لقد خلق الله عز وجل الإنسان ليكون عبدًا خالصًا له، وسيدًا على ما سواه، وقد سخَّر له الكون وما فيه لخدمته وراحته، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة: ٢٩]. وقال أيضًا: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [سورة الرحمن: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٣١-٣٤].

تأمل هذا التكريم الإلهي الذي يجعل كل شيء حولك خادمًا لك، مسخرًا لما ينفعك.

انظر إلى جسدك، ذلك الكيان الذي أبدعه الله بدقة ووفَّر فيه ما تحتاجه للقيام بمهامك. فالعين ترى لك ما حولك، لتتمكن من إدراك الواقع وتتفاعل معه.

واللسان يسخّر لخدمتك، يعبر عن أفكارك ويبيّن ما تريد، ويدك تساعدك في البطش والكتابة والتسبيح، وتعينك في كل أعمالك. كذلك قدماك، تتحرك بهما أينما شئت، كلٌّ من هذه الأعضاء خاضعة لأوامرك، تؤدي ما تطلبه دون اعتراض.

أما في داخلك، فهناك منظومة من الأجهزة تعمل بدقة مذهلة دون أن تتدخل في عملها أو تدرك تفاصيلها؛ الهضم يتم تلقائيًا بعد تناولك للطعام، ويمر الطعام بمراحل مختلفة، حيث تمتص أعضاؤك ما يفيد وتخرج الفضلات دون عناء.

قلبك ينبض، ورئتاك تتنفسان، والكبد ينقي الدم، وكل عضو يقوم بوظيفته ليلاً ونهارًا من أجل راحتك، دون أن تُجهد نفسك في متابعة عملها أو في التفكير في كيفية التئام جرح أو التعامل مع مرض، فهناك من يُدبّر هذه الأمور بلطف وإحكام.

كل هذا التسخير والإعانة من الله تعالى لتعيش حياتك وتقوم بواجبك في عبادته وإعمار الأرض، فاعرف قدر هذه النعم، واشكر الله الذي سخّر لك كل هذا، وقد أكرمك ورعاك.

✓ حلمه وصبره وستره لك

إن الله عز وجل، الحي القيوم، قريبٌ منا لا يغفل ولا ينام، يرى ويعلم سرائر قلوبنا، وما تخفيه أنفسنا. إنه معنا، يسمع كلامنا، ويرى أعمالنا في السر والعلن، ويعلم ما يدور في أفكارنا قبل أن نعبر عنه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: ١٦].

إنه سبحانه جلَّ شأنه على علم بكل فعلٍ نقوم به، وبكل خطأ نرتكبه.

فهو مطلع علينا حين ننظر إلى ما حرّم الله، ويرى غفلتنا عند سماع الأذان ونحن نأبى أن نجيب داعي الصلاة.

يعرف حين نكذب ونخادع، وحين نستبيح النظرات المحرمة أو نتكاسل عن الطاعات. كم كان من السهل على الله أن يأخذنا في لحظات معصيتنا، فنُحاسب على زلاتنا لحظتها.

ومع ذلك، لم يعاقبنا على كل تقصير، بل حَلِم علينا، وصبر، وستَرَ عيوبنا، ومنحنا فرصةً للتوبة والاستغفار. قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة يس: ٦٧].

ومع كل معصية، كان قادرًا على أن يأخذنا دون إمهال، لكنه لطف بنا وصبر علينا، وفتح لنا باب التوبة والعودة، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة النحل: ٦١].

فتأمل، أيها العبد، هذا الفضل العظيم، وهذه النعم العظيمة التي منَّ الله بها عليك؛ من حلمه وصبره وستره. وكم هي هذه النعم التي نعيش فيها، والتي لا تحصى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة النحل: ١٨].

فالله يُذكّرنا بنعمه المتتابعة التي يغدقها علينا، ويدعونا إلى التأمل فيها، إذ يقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [سورة الرحمن: ١٣].

فيا معاشر أهل الإسلام، والله لو تفكرتم في هذه النعم وشكرتم الله عليها، لأغدق عليكم من فضله، وزادكم من الخير أضعافًا مضاعفة، فقد وعد سبحانه وتعالى بذلك ووعده الحق: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة إبراهيم: ٧].

فاعرف قدر هذه النعم، وتذكر أن كل لحظة من حياتك مليئة بفضل الله وإحسانه، فهل تستجيب لهذا الفضل بشكر يليق بجلاله سبحانه؟

فصلٌ:

فإذا أرشدك الله تعالى ووفقك إلى هذه الأمور الثلاثة: التدبر في كتابه، والتأمل في آياته الكونية، والتفكر في نعمه وإحسانه إليك، فقد منحك نعمة عظيمة وفضلاً لا يُقدَّر بثمن.

فالتدبر في القرآن الكريم يفتح للقلب أبواب العلم، ويملؤه بركة وحكمة، إذ يجعل الإنسان يتذوق حلاوة معاني آيات الله ويتأمل ما تحمله من هدى ورحمة، فيدرك أن القرآن ليس مجرد كلمات، بل هو منهج حياة وإرشاد للسعادة في الدنيا والفوز في الآخرة.

أما التفكر في آيات الله الكونية – تلك المشاهد العظيمة التي تحيط بنا من سماءٍ وأرض، من شمسٍ وقمر، من حياةٍ وموت – فيجعل الإنسان يقف أمام عظمة الخالق متأملاً في قدرته وإبداعه في خلقه. كل ذلك يزيد الإنسان يقينًا بأن الكون بما فيه إنما هو آيات دالة على وحدانية الله وحكمته وواسع علمه.

وحين يرى الإنسان نعمة الله المبثوثة في كل ما حوله – في طعامه وشرابه، وصحته وأمانه، وعافيته ونعيمه – يدرك حينها إحسان الله إليه بلا حد ولا عد، ويشعر أن نعم الله تحيط به من كل جانب.

فهذه الأنواع الثلاثة: التدبر، والتأمل، والتفكر في نعم الله، هي التي تُوقظ في القلب معرفة الله ومحبته، وتولد فيه مشاعر الخوف من الله والرجاء فيه.

كما أنَّ الاستمرار في التفكير في هذه الأمور مع الذكر والتسبيح يزرع في القلب صفاءً ومعرفةً عميقةً بالله، ويزيد من محبته، ويشعل فيه شعلة الرجاء والخوف، فتترسخ في قلب العبد أسمى معاني العبودية الصادقة، فيصطبغ قلبه صبغة من المعرفة بالله، ومحبة خالصة لا تتغير ولا تزول بإذن الله تعالى.

العلاج الثاني: الافتقار والانكسار لله سبحانه وتعالى

وهذا الدواء مِن أنفع الأدوية وأحسنها، فإنَّ هذا الفتور يجعل العبد يعلم مدى حاجته وافتقاره لربه وخالقه وسيده ومولاه سبحانه وتعالى، قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة فاطر: ١٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في مدارج السالكين (٣/ ١٢٢):

"وَفِي هَذِهِ الْفَتَرَاتِ وَالْغُيُومِ وَالْحُجُبِ، الَّتِي تَعْرِضُ لِلسَّالِكِينَ: مِنَ الْحِكَمِ مَا لَا يَعْلَمُ تَفْصِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ. وَبِهَا يَتَبَيَّنُ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ.

فَالْكَاذِبُ: يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ. وَيَعُودُ إِلَى رُسُومِ طَبِيعَتِهِ وَهَوَاهُ.

وَالصَّادِقُ: يَنْتَظِرُ الْفَرَجَ. وَلَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ. وَيُلْقِي نَفْسَهُ بِالْبَابِ طَرِيحًا ذَلِيلاً مِسْكِينًا مُسْتَكِينًا، كَالْإِنَاءِ الْفَارِغِ الَّذِي لَا شَيْءَ فِيهِ أَلْبَتَّةَ، يَنْتَظِرُ أَنْ يَضَعَ فِيهِ مَالِكُ الْإِنَاءِ وَصَانِعُهُ مَا يَصْلُحُ لَهُ، لَا بِسَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ - وَإِنْ كَانَ هَذَا الِافْتِقَارُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ - لَكِنْ لَيْسَ هُوَ مِنْكَ. بَلْ هُوَ الَّذِي مَنَّ عَلَيْكَ بِهِ. وَجَرَّدَكَ مِنْكَ. وَأَخْلَاكَ عَنْكَ. وَهُوَ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ.

فَإِذَا رَأَيْتَهُ قَدْ أَقَامَكَ فِي هَذَا الْمَقَامِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَرْحَمَكَ وَيَمْلأَ إِنَاءَكَ، فَإِنْ وَضَعْتَ الْقَلْبَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَلْبٌ مُضَيَّعٌ. فَسَلْ رَبَّهُ وَمَنْ هُوَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ: أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيْكَ وَيَجْمَعَ شَمْلَكَ بِهِ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

إِذَا مَا وَضَعْتَ الْقَلْبَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ... بِغَيْرِ إِنَاءٍ فَهُوَ قَلْبٌ مُضَيَّعُ. اهـ

فليتك تفهم هذا الكلام، فأنت مفتقرٌ لله سبحانه وتعالى في كل أحوالك وفي كل لحظات حياتك.

فَالْفَقْرُ الْحَقِيقِيُّ: دَوَامُ الِافْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَأَنْ يَشْهَدَ الْعَبْدَ - فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ - فَاقَةً تَامَّةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

فَالْفَقْرُ ذَاتِيٌّ لِلْعَبْدِ. وَإِنَّمَا يَتَجَدَّدُ لَهُ لِشُهُودِهِ وَوُجُودِهِ حَالًا، وَإِلَّا فَهُوَ حَقِيقَةٌ.

كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ:

وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٌ أَبَدًا ... كَمَا الْغِنَى أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِيُّ

فمن ألقى نفسه طريحًا على باب خالقه ومولاه يوشك أن يُفتح له.

فإذا تيقنت عجزك وفقرك، وعلمت أنَّ ما كان بك مِن حُبِّ الطاعات وما خالج قلبك مِن حلاوة الإيمان ليس مِنك ولا بك، إنَّما هو محض فضلٍ من الله، فحينها تنطرح بين يدي مولاك وسيدك عبدًا ذليلا منكسرًا ينتظر متى يمنُّ عليه سيده ومولاه بإرجاعه إلى منزل عزِّ الطاعة، وإلى جنةِ حلاوة الإيمان، وإلى رحاب محبته ورضاه، لسان حاله وقالِه: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ بِيَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَالْمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، لَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**».

وتظهر عليك وعلى جوارحك مظاهر الافتقار لسيدك ومولاك.

فصلٌ:

في مظاهر افتقار العبد لربه سبحانه وتعالى:

✓ الأول: الدعاء:

يُعد الدعاء من أعظم مظاهر الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى، خاصة عندما يعبّر العبد عن عجزه وفقره أمام ربه، مُقرًا بأن كل شيء بيد الله، وأنه لا غنى له عنه في أي حال.

إنَّ الدعاء يمثل الاعتراف الكامل بالفقر، ويُظهر تواضع العبد أمام عظمة الله. ومن أجمل الأمثلة على ذلك دعاء نبي الله موسى عليه السلام عندما نادى ربه في دعائه: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة القصص: ٢٤].

وقال تعالى عن أيوب عليه السلام: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٨٣].

وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلاَ تَكِلْنِى إِلَى نَفْسِى طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ**». [1]

ما أجمل هذا الدعاء وأحسنه وهذا الافتقار لله عز وجل، فإنَّه ﷺ أعلن فيه الافتقار العظيم والتوجه الكامل إلى الله، مُظهرًا الحاجة والذل أمام عظمة الله سبحانه وتعالى.

---

[1] (حسن) رواه أبو داود (٥٠٩٠)، وحسَّنه الألباني في "صحيح أبي داود".

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٨/ ٣٣٠):

"وَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ مَأْمُورٌ بِشُهُودِ الْقَدَرِ وَتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ فَهُوَ مَأْمُورٌ بِذَلِكَ عِنْدَمَا يُنْعِمُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ فَيَشْهَدُ قَبْلَ فِعْلِهَا حَاجَتَهُ وَفَقْرَهُ إلَى إعَانَةِ اللَّهِ لَهُ وَتَحَقُّقِ قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾. وَيَدْعُو بِالْأَدْعِيَةِ الَّتِي فِيهَا طَلَبُ إعَانَةِ اللَّهِ لَهُ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ كَقَوْلِهِ: «أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِك وَشُكْرِك وَحُسْنِ عِبَادَتِك» وَقَوْلِهِ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِك وَيَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ اصْرِفْ قَلْبِي إلَى طَاعَتِك وَطَاعَةِ رَسُولِك» وَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾. وَمِثْلِ قَوْلِهِ: «اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي وَاكْفِنِي شَرَّ نَفْسِي». وَرَأْسُ هَذِهِ الْأَدْعِيَةِ وَأَفْضَلُهَا قَوْلُهُ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾. فَهَذَا الدُّعَاءُ أَفْضَلُ الْأَدْعِيَةِ وَأَوْجَبُهَا عَلَى الْخَلْقِ فَإِنَّهُ يَجْمَعُ صَلَاحَ الْعَبْدِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ " بِالتَّوْبَةِ " فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ الدُّعَاءَ بِأَنْ يُلْهِمَ الْعَبْدَ التَّوْبَةَ وَكَذَلِكَ دُعَاءُ " الِاسْتِخَارَةِ " فَإِنَّهُ طَلَبُ تَعْلِيمِ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ وَتَيْسِيرِهِ لَهُ وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ الَّذِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو بِهِ إذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ. وَهُوَ فِي الصَّحِيحِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جبرائيل وميكائيل وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِك فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اُخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِك إنَّك تَهْدِي مَنْ

تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ الَّذِي فِيهِ: «اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِك مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعْصِيَتِك وَمِنْ طَاعَتِك مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَك وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا» وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ بِالْيَقِينِ وَالْعَافِيَةِ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي قَلْبِي وَنِيَّتِي وَمِثْلُ قَوْلِ الْخَلِيلِ وَإِسْمَاعِيلَ: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. وَهَذِهِ أَدْعِيَةٌ كَثِيرَةٌ تَتَضَمَّنُ افْتِقَارَ الْعَبْدِ إلَى اللَّهِ فِي أَنْ يُعْطِيَهُ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ فَهَذَا افْتِقَارٌ وَاسْتِعَانَةٌ بِاَللَّهِ قَبْلَ حُصُولِ الْمَطْلُوبِ فَإِذَا حَصَلَ بِدُعَاءِ أَوْ بِغَيْرِ دُعَاءٍ شَهِدَ إنْعَامَ اللَّهِ فِيهِ وَكَانَ فِي مَقَامِ الشُّكْرِ وَالْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ وَأَنَّ هَذَا حَصَلَ بِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ لَا بِحَوْلِ الْعَبْدِ وَقُوَّتِهِ. فَشُهُودُ الْقَدَرِ فِي الطَّاعَاتِ مِنْ أَنْفَعِ الْأُمُورِ لِلْعَبْدِ وَغَيْبَتُهُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ أَضَرِّ الْأُمُورِ بِهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدَرِيًّا مُنْكِرًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدَرِيَّ الِاعْتِقَادِ كَانَ قَدَرِيَّ الْحَالِ وَذَلِكَ يُورِثُ الْعُجْبَ وَالْكِبْرَ وَدَعْوَى الْقُوَّةِ وَالْمِنَّةِ بِعَمَلِهِ وَاعْتِقَادِ اسْتِحْقَاقِ الْجَزَاءِ عَلَى اللَّهِ بِهِ فَيَكُونُ مَنْ يَشْهَدُ الْعُبُودِيَّةَ مَعَ الذُّنُوبِ وَالِاعْتِرَافِ بِهَا - لَا مَعَ الِاحْتِجَاجِ بِالْقَدَرِ - عَلَيْهَا خَيْرًا مِنْ هَذَا الَّذِي يَشْهَدُ الطَّاعَةَ مِنْهُ لَا مِنْ إحْسَانِ اللَّهِ إلَيْهِ وَيَكُونُ أُولَئِكَ الْمُذْنِبُونَ بِمَا مَعَهُمْ مِنْ الْإِيمَانِ أَفْضَلَ مِنْ طَاعَةٍ بِدُونِ هَذَا الْإِيمَانِ". اهـ

✓ الاستعانة بالله والتوكل عليه

الاستعانة بالله تعني طلب العون من الله في تحقيق المراد ودفع المكروه، وهي مظهر من مظاهر الافتقار، لأن العبد عندما يستعين بالله يظهر حاجته إلى مدده

وعونه، مع إدراكه أن القوة والحول كلها من عنده سبحانه. وقد ورد في القرآن الكريم تأكيد على أهمية الاستعانة بالله، كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فالاستعانة بالله تبدأ من الأمور الصغيرة إلى الكبيرة، من شؤون الحياة اليومية إلى الأحوال العظيمة كالشدائد والمصاعب. وقد روى مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**».

فالنبي ﷺ يرشد المسلم إلى الأخذ بالأسباب النافعة والتوكل على الله في تحصيل ما ينفعه، مستعينًا به وحده، واثقًا بأنَّ الفضل كله من عنده.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ:

"وكلما ازداد القلب حبًّا لله: ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية: ازداد له حبًّا، وفضَّله عما سواه، والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل، فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا ينعم، ولا يسر، ولا يلتذ، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن، إلا بعبادة ربه وحبه، والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات: لم يطمئن، ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده، ومحبوبه، ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرَح، والسرور، واللذة، والنعمة، والسكون، والطمأنينة.

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له؛ فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾. اهـ "[١]

وكذا التوكل على الله، فإنَّ التوكل على الله يحمل على الشعور بالطمأنينة، لأن العبد يعلم أن الأمور كلها بيد الله، وأنه لا يقع شيء إلا بإذنه.

وهذا المظهر يعبر عن أقصى درجات الافتقار لله، حيث يضع العبد كل آماله وتدابيره في يد الله وحده، محققًا بذلك عبودية كاملة لله.

قال سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۝٥٨﴾ [سورة الفرقان:٥٨].

✓ السجود لله والانطراح بين يديه سبحانه

السجود لرب الأرض والسماوات هو من أسمى صور العبودية والافتقار إلى الله تعالى، حيث يجسد ذروة الخضوع والتذلل للخالق عز وجل. فالسجود يمثل خضوع العبد لربه وإظهار عجزه التام أمام قدرته وعظمته.

قال شيخ الإسلام: "لفظ "السجود"، فإنه إنما يستعمل في غاية الذل والخضوع، وهذه حال الساجد" اهـ[٢]

فهذا القول يشير إلى أن السجود يحمل في طياته أعمق معاني الانكسار والخضوع لله، إذ ينزل العبد فيه إلى الأرض واضعًا جبهته، في أقصى درجات التواضع والافتقار.

---

(١) العبودية " (ص ٩٧).

(٢) من "جامع الرسائل، رسالة في قنوت الأشياء" (١/ ٣٤).

وهذا السجود كان مفزع الأنبياء والمرسلين في أوقات الشدة والرخاء على حد سواء. فقد ورد عنهم أنهم كانوا يلجؤون إلى السجود كلما ضاقت بهم الأمور أو احتاجوا إلى عون الله وتوفيقه، مبتهلين إليه أن يعينهم ويثبتهم.

قال سبحانه عن معاشر أنبيائه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ [سورة مريم: ٥٨].

وهو كذلك ملجأ المؤمنين الصادقين وملاذهم في أوقات الشدة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

فمن طرق باب الله ولجأ إليه بفقره وضعفه، فإنَّ الله لا يرده خائبًا.

فالعبد إذا أظهر عجزه واستغنى عن كل شيء سواه وألقى نفسه بين يدي ربه، فإنَّه حينها يلتجئ إلى ركن شديد، ويفوض أمره لمن بيده كل شيء، حتى يأذن الله له بفرج ومخرج كريم.

ومن أبلغ الأمثلة على ذلك قصة توبة الثلاثة الذين خُلِّفوا، حيث وصف الله حالهم بما كانوا عليه من الخضوع والافتقار والندم الصادق. قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ

وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ [سورة التوبة: ١١٨].

قال العلامة العثيمين (٣/ ٩١):

«واعلم أن لله تعالى على عبده توبتين؛ التوبة الأولى قبل توبة العبد؛ وهي التوفيق للتوبة؛ والتوبة الثانية بعد توبة العبد؛ وهي قبول التوبة». اهـ

تأمل كيف كان حال سلفنا الصالح، وافتقارهم الصادق إلى الله عز وجل في كل شؤونهم، على الرغم مما بلغوه من العلم والعمل والتقوى. فقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله نموذجًا في الانكسار والخضوع بين يدي الله، إذ كتب في أواخر عمره قاعدةً في التفسير، وعلى ظهرها نظم بعض الأبيات بخط يده، يعبّر فيها عن حاله وافتقاره إلى مولاه، فقال:

أَنَا الْفَقِيرُ إِلَى رَبِّ الْبَرِيَّاتِ ... أَنَا الْمُسَكِينُ فِي مَجْمُوعِ حَالَاتِي
أَنَا الظَّلُومُ لِنَفْسِي وَهِيَ ظَالِمَتِي ... وَالْخَيْرُ إِنْ يَأْتِنَا مِنْ عِنْدِهِ يَأْتِي
لَا أَسْتَطِيعُ لِنَفْسِي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ ... وَلَا عَنِ النَّفْسِ لِي دَفْعُ الْمَضَرَّاتِ
وَلَيْسَ لِي دُونَهُ مَوْلًى يُدَبِّرُنِي ... وَلَا شَفِيعٌ إِذَا حَاطَتْ خَطِيئَاتِي
إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمَنِ خَالِقِنَا ... إِلَى الشَّفِيعِ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْآيَاتِ
وَلَسْتُ أَمْلِكُ شَيْئًا دُونَهُ أَبَدًا ... وَلَا شَرِيكٌ أَنَا فِي بَعْضِ ذَرَّاتِ
وَلَا ظُهَيْرٌ لَهُ كَيْ يَسْتَعِينَ بِهِ ... كَمَا يَكُونُ لِأَرْبَابِ الْوِلَايَاتِ
وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٍ أَبَدًا ... كَمَا الْغِنَى أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي
وَهَذِهِ الْحَالُ حَالُ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ ... وَكُلُّهُمْ عِنْدَهُ عَبْدٌ لَهُ آتِي
فَمَنْ بَغَى مَطْلَبًا مِنْ غَيْرِ خَالِقِهِ ... فَهُوَ الْجَهُولُ الظَّلُومُ الْمُشْرِكُ الْعَاتِي

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِلْءَ الْكَوْنِ أَجْمَعِهِ مَا كَانَ مِنْهُ وَمَا مِنْ بَعْدُ قَدْ يَاتِي

لقد جسدت هذه الكلمات صدق شيخ الإسلام في إظهار حاجته الدائمة إلى الله، واعترافه بضعفه وتقصيره، رغم منزلته العلمية.

وقد سار السلف الصالح على هذا المنهج، فكانوا دائمًا يشعرون بالحاجة إلى الله في كل حال، متوجهين إليه بقلوب مملوءة بالخشوع والانكسار، عالمين أن كل خير وفضل إنما هو من عند الله وحده، وأنَّه لا حول ولا قوة إلا به.

فصلٌ:

فالافتقار إلى الله من أعظم وسائل تقوية الإيمان، ودواء فعَّال لتطهير القلب وزيادة القرب من الله.

إنَّ حقيقة الافتقار تكمن في إدراك العبد ضعفه وعجزه المطلق أمام قدرة الله وكماله، وأنَّ كل ما يملكه الإنسان وما يحصل عليه هو بفضل الله وحده، فيرى نفسه فقيرًا مهما بلغت قوته، وذليلاً مهما بلغت عزته، وحاجته إلى الله دائمة لا تنقطع.

الافتقار إلى الله يُحيي الإيمان في قلب المؤمن، ويزيد من يقينه في لطف الله وتدبيره، ويزرع فيه بذور الصبر والتوكل، حيث يعتمد القلب على الله بصدقٍ، لا على الأسباب المادية وحدها. في لحظات الافتقار الصادقة، يذوق المؤمن حلاوة الإيمان، حيث يشعر بقرب الله واستجابته، ويشعر بأن الله لا يرده ولا يخيب من يلجأ إليه، إذ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سورة غافر: ٦٠].

الافتقار إلى الله يعلِّم العبد الخضوع التام، ويجعله يتخلى عن الكبر والعجب بالنفس، فيتواضع وينكسر بين يدي خالقه، ويجد لذة في هذا الانكسار لا تضاهيها لذة أخرى. فإنَّ من ذاق طعم الافتقار إلى الله والانكسار والانطراح بين يديه فقد عرف معنى العبودية الحقة؛ لأن هذا الشعور يجعله يتوجه إلى الله في كل شأن من شؤون حياته، سواء في السراء أو الضراء، ويوقن أن الله هو الملجأ والمعين.

الافتقار إلى الله هو الباب الأوسع لتحقيق السكينة والرضا، فكلما شعر العبد بضعفه واحتياجه لله، زادت ثقته بالله، وحصل له الاطمئنان التام.

فتتحول حاجاته وهمومه إلى دعاء صادق، ويملأ الإيمان قلبه، ويشعر بالرضا بما قسمه الله له.

كما أن الافتقار هو السبيل إلى التحرر من أسر الدنيا، فالعبد الذي يفتقر إلى الله يدرك أن الدنيا لا تغنيه عن مولاه وسيده، فيبتعد عن التعلُّق الزائد بها، ويزهد في ما سواه، ويعيش في عزة الإيمان بعيدًا عن عبودية الناس والمخلوقات.

وخلاصة القول أنَّ الافتقار إلى الله هو أساس العبودية الصادقة، ومفتاح القرب من الله، وسر من أسرار السعادة في الدنيا والآخرة.

فمن ذاق طعمه، عرف حقيقة الراحة والسكينة، وتذوق حلاوة الإيمان، وكان له نور يضيء له الطريق، ويزيده قوةً ويقينًا حتى يلقى ربه، وهو في أعلى درجات الحب والطاعة والخشوع.

العلاج الثالث: مراجعة الإخلاص

مراجعة الإخلاص: تعني تفقد نية العمل، والتأكد من أنَّ كل عمل وقول وتصرف يكون خالصًا لله سبحانه وتعالى، بعيدًا عن الرياء أو طلب الثناء من الناس.

ومن أهم معاني مراجعة الإخلاص أن ينظر المسلم في حاله قبل العمل وأثناءه وبعده، فيتحقق من نيته قبل أن يبدأ العمل، ويستحضر أنه يقوم به امتثالًا لأمر الله وسعيًا لرضاه وحده، لا طمعًا في مدحٍ أو مصلحةٍ دنيوية.

وأثناء العمل، يحرص على ألا يداخل نيته حب السمعة أو إعجاب الناس، وإن شعر بشيء من ذلك، يُجاهد نفسه ليبقى مخلصًا لله.

وبعد أن ينتهي، يُراجع ما كان في قلبه من نوايا، ويتفكر فيما قد يكون أصاب عمله من خلل أو شائبة فيتوب إلى الله ويستغفره من كل ما داخل نيته.

ومراجعة الإخلاص من أعظم الأمور التي ينبغي للمؤمن أن يوليها اهتمامه، فهي ليست مجرد نية يُضمرها في بداية عمله، وإنما حالة مستمرة من التدقيق والمراقبة لقلبه في كل لحظاته وسكناته، حتى لا يتسرب إليه الرياء أو ينحرف عن المقصد الحقيقي من عمله.

فالإخلاص لله عز وجل هو الأساس الذي تُبنى عليه الأعمال، إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة البينة: ٥].

وكم من قدمٍ زلَّت، وكم من قلبٍ انتكس، وكم من جوارحٍ أصابها الوهن بسبب غياب الإخلاص!

فإنما يقع العبد في شراك الشيطان وأهوائه عندما يتغافل عن إخلاص النية، فيتحول عمله من كونه قربة لله إلى مجرد حركة أو مظهر أمام الناس.

وقد جاءت الآيات والأحاديث الكثيرة التي تحذر من عواقب الرياء على القلوب والنفوس، ففي صحيح مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**».

فالإخلاص هو الضمانة الوحيدة لاستقامة القلب وثباته على الإيمان.

ومراجعة الإخلاص تجعل القلب دائم التوجه إلى الله، متعلّقًا به، مستعينًا به في دفع الهوى والشهوات، إذ إن العبد إذا راقب إخلاصه تحصن ضد أمراض القلوب، ولم يجعل للأهواء والشيطان سبيلاً إلى نفسه.

فالإخلاص هو طهارة القلوب من أي شائبة، وتحصين من زلات الطريق، لأنه حصن العبد من الغرور والكبر اللذَين قد يفسدان العمل. ولذلك قيل: "كم من عملٍ قليل عظَّمته النية، وكم من عملٍ كثير حقَّرته النية".

وقد انتكست قلوبُ وأقدامُ عبادٍ وعلماء ومجاهدين ومنفقين بسبب نقص الإخلاص، لأن الرياء قد يدب إلى النفوس، فتغتر بمدح الناس أو مكانتهم، فيصبحون أسرى لأهواء الناس وآرائهم.

وقد جاء عن النبي ﷺ في وصف الثلاثة الذين تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة: قارئ القرآن، والمجاهد، والمنفق، ممن كان يرائي بأعماله، فكل منهم يُسأل عن عمله فيقول: فعلت كذا وكذا في سبيلك، فيقال له: "كذبت، إنما فعلت ليقال كذا وقد قيل، ثم يسحب على وجهه إلى النار".

وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه إذا ذكر هذا الحديث يُغمى عليه من شدة الخوف والخشية.

فقد روى مسلم والترمذي واللفظ له من حديث عُقْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ أَنَّ شُفَيًّا الأَصْبَحِيَّ، حَدَّثَهُ أَنَّهُ، دَخَلَ المَدِينَةَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: أَبُو هُرَيْرَةَ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَلَمَّا سَكَتَ وَخَلاَ قُلْتُ لَهُ: أَسْأَلُكَ بِحَقٍّ وَبِحَقٍّ لَمَا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَقَلْتَهُ وَعَلِمْتَهُ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَفْعَلُ، لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً فَمَكَثْنَا قَلِيلاً ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَا البَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ أَفَاقَ فَمَسَحَ وَجْهَهُ فَقَالَ: أَفْعَلُ، لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا وَهُوَ فِي هَذَا البَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ مَالَ خَارًّا عَلَى وَجْهِهِ فَأَسْنَدْتُهُ عَلَيَّ طَوِيلاً، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى العِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ

جَمَعَ القُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ المَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ المَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ "، ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رُكْبَتِي فَقَالَ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ**».

وهذا من أعظم العواقب التي تدل على خطورة الرياء وضعف الإخلاص.

فالمرائي ليس له ملاذ من الله إلا بالإخلاص التام؛ لأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا صافيًا لا يشوبه شيء، وكلما كان العبد حريصًا على مراجعة إخلاصه، نجا من عواقب الغفلة والرياء، وأحسن توجيه قلبه إلى الله، فنال محبته وثبَّت الله إيمانه، وجعل قلبه متعلّقًا به وحده، وحفظه من الانتكاس والضعف.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه قصصًا عميقة التأثير تدعو المؤمنين إلى الإخلاص وتحذرهم من عاقبة الرياء وفساد النية، ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٧٥-١٧٧].

هذه القصة تبيِّن حال من أُوتي العلم والآيات، لكنه انحرف عن سبيل الله وتبع هواه، حتى انتهى به الأمر إلى الخسران المبين.

وكان سبب هذه الحال المزرية التي وصل إليها لهو فساد قصده وغياب الإخلاص من قلبه، كما يظهر في قوله تعالى:﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ﴾.

وهذا الإنذار الإلهي يذكّر المؤمنين أن الإخلاص هو حصن القلب من ضلالات الهوى، ولا ينجو مِن فساد القصد وعدم الإخلاص إلا من أخلصه الله سبحانه وتعالى، وخلَّصه مِن حبال الهوى والنفس والشيطان.

ولك أن تستمع إلى ما ذكره ربنا سبحانه وتعالى في كتابه عن إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحجر: ٣٩-٤٠].

فصلٌ:

الإخلاص في العبادة يعني توجيه العمل لله وحده بلا رغبة في مدح الناس أو تعظيمهم، ولا طمعًا في مصلحة دنيوية أو دفعًا لمكروه دنيوي.

قال العز بن عبد السلام: "الإخلاص أن يفعل المكلف الطاعة خالصة لله وحده، لا يريد بها تعظيمًا من الناس ولا توقيرًا، ولا جلب نفع ديني، ولا دفع ضرر دنيوي."

وقد تواطأت كلمات السلف على هذا المعنى، حيث قالوا إنَّ الإخلاص هو أن يكون العمل نقيًّا خالصًا من أي رغبة توجهه لغير الله.

ومن عظيم هذا الإخلاص أنَّه أساس لذة الإيمان؛ فكل من حاد عن طريق الإخلاص، حُرِم من حلاوة الإيمان ونوره.

يقول بشر الحافي: "لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس."

وإنَّه لجهاد عظيم على النفس لا يتقنه إلا مَن صَفَت سريرته وقلبه، حيث قال سهل بن عبد الله: "ليس شيء أشق من الإخلاص لأنه ليس للنفس فيه نصيب." وقال سفيان الثوري: "ما عالجت شيئًا أشد علي من نيتي."

قال أيوب السختياني: "تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال".

وقد أوصى السلف بعضهم بعضًا بالإخلاص، حتى قال أحدهم لأخيه: "أخلص النية في أعمالك؛ يكفك القليل من العمل." وهذا دليلٌ على أن العمل

القليل المقبول عند الله يعادل الجهد العظيم، لأن الله تعالى يتقبل من المتقين، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة المائدة: ٢٧].

وقال أبو سليمان الداراني: "طوبى لمن صحت له خطوة واحدة، لا يريد بها إلا الله تعالى."

ويذكر بعض السلف أن "من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لله تعالى نجا."، وذلك لعزة الإخلاص وعُسْر تنقية القلب عن هذه الشوائب.

فالعمل المخلص إذا قبله الله يمنح صاحبه أجرًا عظيمًا، وذلك فضل الله العظيم، إذ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾

وقد روى ابن ماجه في سننه عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلاَئِقِ، فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلاً، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: لاَ، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لاَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ، أَلَكَ حَسَنَةٌ؟ فَيُهَابُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لاَ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ، مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ، فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ».

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة (٦/ ٢١٩):

"فَهَذِهِ حَالُ مَنْ قَالَهَا بِإِخْلاَصٍ وَصِدْقٍ، كَمَا قَالَهَا هَذَا الشَّخْصُ. وَإِلَّا فَأَهْلُ الْكَبَائِرِ الَّذِينَ دَخَلُوا النَّارَ كُلُّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَمْ يَتَرَجَّحْ قَوْلُهُمْ عَلَى سَيِّئَاتِهِمْ، كَمَا تَرَجَّحَ قَوْلُ صَاحِبِ الْبِطَاقَةِ.

وَكَذَلِكَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ فِيهَا الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ. ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ. فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ**».

وَفِي لَفْظٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «**إِنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا، فَسَقَتْهُ بِهِ، فَغُفِرَ لَهَا**». وَفِي لَفْظٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «**أَنَّهَا كَانَتْ بَغِيًّا مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**».

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي طَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ**».

فَهَذِهِ سَقَتِ الْكَلْبَ بِإِيمَانٍ خَالِصٍ كَانَ فِي قَلْبِهَا فَغُفِرَ لَهَا، وَإِلَّا فَلَيْسَ كُلُّ بَغِيٍّ سَقَتْ كَلْبًا يُغْفَرْ لَهَا. وَكَذَلِكَ هَذَا الَّذِي نَحَّى غُصْنَ الشَّوْكِ عَنِ الطَّرِيقِ، فَعَلَهُ إِذْ ذَاكَ بِإِيمَانٍ خَالِصٍ، وَإِخْلاَصٍ قَائِمٍ بِقَلْبِهِ، فَغُفِرَ لَهُ بِذَلِكَ. فَإِنَّ الْأَعْمَالَ تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِخْلاَصِ، وَإِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَكُونُ مَقَامُهُمَا فِي

الصَّـفِّ وَاحِدًا، وَبَيْنَ صَـلاَتَيْهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ نَحَّى غُصْنَ شَوْكٍ عَنِ الطَّرِيقِ يُغْفَرُ لَهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾

فَالنَّاسُ يَشْتَرِكُونَ فِي الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا، وَاللَّهُ لَا يَنَالُهُ الدَّمُ الْمُهْرَاقُ وَلَا اللَّحْمُ الْمَأْكُولُ، وَالتَّصَدُّقُ بِهِ، لَكِنْ يَنَالُهُ تَقْوَى الْقُلُوبِ.

وَفِي الْأَثَرِ: "إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَكُونُ مَقَامُهُمَا فِي الصَّفِّ وَاحِدًا، وَبَيْنَ صَلاَتَيْهِمَا كَمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ". اهـ

وأداء الطاعات دون إخلاصٍ لله وصدقٍ في القصد يُفقد العمل قيمته، ولا يُكسب صاحبه ثوابًا، بل يعرضه لوعيدٍ شديد، حتى وإن كانت الطاعات من الأعمال العظيمة كالجهاد في سبيل الله، والإنفاق في وجوه الخير، وطلب العلم الشرعي. كما مرَّ في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حول أول من تُسَعَّر بهم النار، ففي الحديث يظهر جليًا خطر العمل الذي يفتقر إلى الإخلاص.

لهذا، يا أخي، راجع إخلاصك وتفقد قلبك، فقد يكون إخلاصُك في بعض الأحيان مريضًا، يحتاج إلى معالجةٍ ومجاهدةٍ حتى يستعيد عافيته، فتذوقَ حلاوة الإيمان.

فإنَّ القلب الذي ابتعد عن الإخلاص لا يجد في العبادة لذةً، بل مرارةً تزداد مع كل طاعةٍ يؤديها، لأنها لم تُرَد بها وجه الله تعالى، أو قد شابها رياء أفسد عليه عمله.

فالإخلاص هو روح العمل، فكما أن الجسد بلا روح لا حياة فيه، فكذلك العمل بلا إخلاص لا أثر له ولا قبول.

قال ابن القيم بعد أن ذكر جملةً من شعب الإيمان: "وملاك ذَلِك كُله الْإِخْلاَص والصدق فَلاَ يتعب الصَّادِق المخلص فقد أقيم على الصِّرَاط الْمُسْتَقيم فيسار بِهِ وَهُوَ رَاقِد وَلَا يتعب من حرم الصدْق وَالْإِخْلاَص فقد قطعت عَلَيْهِ الطَّرِيق واستهوته الشَّيَاطِين فِي الأَرْض حيران فَإِن شَاءَ فليعمل وَإِن شَاءَ فليترك فَلاَ يزِيدهُ عمله من الله إِلَّا بعدا وَبِالْجُمْلَةِ فَمَا كَانَ لله وَبِاللَّهِ فَهُوَ من جند النَّفس المطمئنة". اهـ [1]

(١) الروح (ص: ٢٢٧)

فصلٌ:

اعلم، أخي الكريم، أنَّ مجاهدة النفس على تحقيق الإخلاص عمل عظيم يحتاج منك إلى صبرٍ عظيم وعزيمة صادقة، فإخلاص العمل لله تعالى ليس بالأمر السهل دائمًا، إذ قد يشعر العبد بمشقته وصعوبته، إلا أنَّه يسير على من يسَّره الله له، فما يصعب إلا إذا غابت المعونة الإلهية.

وتظهر صعوبة الإخلاص في عدة أمور، منها:

أنَّ الإخلاص عملٌ قلبي خفي: لا يُدركه الناس ولا يناله نظرهم، فهو شأنٌ خفي بين العبد وربه، وهذا يزيد من مجاهدة النفس عليه، إذ لا يجتذب المدح أو الثناء.

لأن النفس لا تجد فيه نصيبًا؛ فالنفس تتطلع غالبًا إلى حظوظها، وتنجذب لما يحقق لها منفعة دنيوية أو مقامًا محمودًا، إلا مَن أعانه الله فصُرفت نفسه عن الدنيا إلى طلب مرضاة الله وحده.

أنَّ الإخلاص يحتاج إلى عناية مستمرة: فالنفس تتقلب والنية قد تتغير حتى في العمل الواحد، مما يتطلب من المؤمن مراقبة قلبه في كل حين ليصحح النية ويثبتها خالصة لله.

ارتباط الإخلاص بكل عمل: فلا يخلو عمل كبير أو صغير من حاجته للإخلاص، فالعبد المؤمن يسعى في كل أمر من أعماله إلى أن يخلص النية لله، وهذا يتطلب منه دوام الحذر من الرياء ومجاهدة النفس على الاستقامة.

فإخلاص النية لله تعالى في جميع الأعمال من العبادات والمعاملات هو مطلب عظيم، لا يتحقق إلا بمجاهدة مستمرة وصبرٍ على ترويض النفس، حتى يصل العبد إلى مقام الرضا والتسليم الكامل لله وحده، فتكون كل أعماله وجهوده خالصةً لوجهه الكريم.

ومعالجة النفس على الإخلاص، والوصول إلى نيةٍ صافية خالصة في عبادة الله، تتطلب أمورًا متعددة، ومنها:

الاستعانة بالله والتعوذ من الرياء: فالإخلاص أمر عظيم لا يُنال إلا بتوفيق الله، فعلى المؤمن أن يلحّ في الدعاء، مستعيذًا بالله من الرياء، فقد روى البخاري في الأدب المفرد عن معقل بن يسار قال انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ لَلشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلِ الشِّرْكُ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخر؟ قال النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟**» قَالَ: «**قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ لما لا أعلم**». وصححه الألباني

إدراك العبد لحقيقة عبوديته: فينبغي أن يتذكر المؤمن أنه عبدٌ لله، وما يقوم به من أعمال هو تكليف من الله وليس معاوضة، فما يناله من الأجر فضلٌ من الله لا أنَّه مقابل لخدمته، وهذا الفهم يعين على الإخلاص وتجنب اللهث وراء المدح.

رؤية منَّة الله وفضله عليه: ومعنى ذلك أن يدرك المؤمن أنَّ كل خير يعمله هو بتوفيق الله لا بجهده وحده، وأنَّ الله هو الذي يُعينه ويُيسر له أموره وأعماله، وأنَّ كل فضل إنما هو من الله سبحانه.

الإكثار من العبادات الخفية: فإنَّ أداء العبادات في السر، كقيام الليل، وصدقة السر، والبكاء خشية من الله بعيدًا عن الناس، يعين على تنقية النية من شوائب الرياء. فقد كان السلف يحرصون على أن تكون لهم أعمال صالحة خفية لا يعلمها أحد.

تذكير النفس بأهمية صلاح القلب وإخلاصه: فيُذكِّر المؤمنُ نفسه بأمر الله بإصلاح القلب والإخلاص له، وأن حرمان المرائي من التوفيق هو عقوبة على سوء قصده وفساد نيته.

خوف مقت الله تعالى: فالمؤمن يستشعر خطورة الرياء وخوفه من أن يطلع الله على قلبه وهو منطوٍ على نية غير صافية، ويخشى عقاب الله على ذلك.

التفكر في عواقب الرياء: فإنَّ معرفة عواقب الرياء في الدنيا والآخرة يزجر النفس عن طلب مدح الناس ويغذي الرغبة في طلب مرضاة الله وحده.

والخلاصة أن نعلم أنَّ الحرص على الإخلاص في العمل هو أحد أعظم أسباب النجاح في الدنيا والآخرة.

ونختم هذا الدواء النافع للقلوب بكلام نفيس لابن القيم رحمه الله، طوبى لمن أكرمه الله بفهمه والعمل به.

قال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين (٢/ ١٩٩):

قوله -أي عمر رضي الله عنه-: " فَمَنْ خَلَصَتْ نِيَّتُهُ فِي الْحَقِّ وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ كَفَاهُ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ تَزَيَّنَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ شَانَهُ اللَّهُ " هَذَا شَقِيقُ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ، وَهُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يَخْرُجَ مِنْ مِشْكَاةِ الْمُحَدِّثِ الْمُلْهَمِ، وَهَاتَانِ الْكَلِمَتَانِ مِنْ كُنُوزِ الْعِلْمِ، وَمِنْ أَحْسَنِ الْإِنْفَاقِ مِنْهُمَا نَفْعُ غَيْرِهِ، وَانْتَفَعَ غَايَةَ الِانْتِفَاعِ: فَأَمَّا الْكَلِمَةُ الْأُولَى فَهِيَ مَنْبَعُ الْخَيْرِ وَأَصْلِهِ، وَالثَّانِيَةُ أَصْلُ الشَّرِّ وَفَصْلُهُ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا خَلَصَتْ نِيَّتُهُ لِلَّهِ تَعَالَى وَكَانَ قَصْدُهُ وَهَمُّهُ وَعَمَلُهُ لِوَجْهِهِ سُبْحَانَهُ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ، وَرَأْسُ التَّقْوَى وَالْإِحْسَانِ خُلُوصُ النِّيَّةِ لِلَّهِ فِي إِقَامَةِ الْحَقِّ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا غَالِبَ لَهُ، فَمَنْ كَانَ مَعَهُ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَغْلِبُهُ أَوْ يَنَالُهُ بِسُوءٍ؟ فَإِنْ كَانَ اللَّهُ مَعَ الْعَبْدِ فَمَنْ يَخَافُ؟ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ فَمَنْ يَرْجُو؟ وَبِمَنْ يَثِقُ؟ وَمَنْ يَنْصُرُهُ مِنْ بَعْدِهِ؟ فَإِذَا قَامَ الْعَبْدُ بِالْحَقِّ عَلَى غَيْرِهِ وَعَلَى نَفْسِهِ أَوَّلًا، وَكَانَ قِيَامُهُ بِاللَّهِ وَلِلَّهِ لَمْ يَقُمْ لَهُ شَيْءٌ، وَلَوْ كَادَتْهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ لَكَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَتَهَا، وَجَعَلَ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا؛ وَإِنَّمَا يُؤْتَى الْعَبْدُ مِنْ تَفْرِيطِهِ وَتَقْصِيرِهِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، أَوْ فِي اثْنَيْنِ مِنْهَا، أَوْ فِي وَاحِدٍ؛ فَمَنْ كَانَ قِيَامُهُ فِي بَاطِلٍ لَمْ يُنْصَرْ، وَإِنْ نُصِرَ نَصْرًا عَارِضًا فَلاَ عَاقِبَةَ لَهُ وَهُوَ مَذْمُومٌ مَخْذُولٌ، وَإِنْ قَامَ فِي حَقٍّ لَكِنْ لَمْ يَقُمْ فِيهِ لِلَّهِ وَإِنَّمَا قَامَ لِطَلَبِ الْمَحْمَدَةِ وَالشُّكُورِ وَالْجَزَاءِ مِنْ الْخَلْقِ أَوْ التَّوَصُّلِ إِلَى غَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ كَانَ هُوَ الْمَقْصُودُ أَوَّلًا، وَالْقِيَامُ فِي الْحَقِّ وَسِيلَةٌ إِلَيْهِ، فَهَذَا لَمْ تُضْمَنْ لَهُ النُّصْرَةُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا ضَمِنَ النُّصْرَةَ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، وَقَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، لَا لِمَنْ كَانَ قِيَامُهُ

لِنَفْسِهِ وَهَوَاهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُتَّقِينَ وَلَا مِنَ الْمُحْسِنِينَ، وَإِنْ نُصِرَ فَبِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الْحَقِّ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُ إِلَّا الْحَقَّ، وَإِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ فَبِحَسَبِ مَا مَعَهُمْ مِنَ الصَّبْرِ، وَالصَّبْرُ مَنْصُورٌ أَبَدًا؛ فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ مُحِقًّا كَانَ مَنْصُورًا لَهُ الْعَاقِبَةُ، وَإِنْ كَانَ مُبْطِلاً لَمْ يَكُنْ لَهُ عَاقِبَةٌ، وَإِذَا قَامَ الْعَبْدُ فِي الْحَقِّ لِلَّهِ وَلَكِنْ قَامَ بِنَفْسِهِ وَقُوَّتِهِ وَلَمْ يَقُمْ بِاللَّهِ مُسْتَعِينًا بِهِ مُتَوَكِّلاً عَلَيْهِ مُفَوِّضًا إِلَيْهِ بَرِيًّا مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ فَلَهُ مِنَ الْخِذْلَانِ وَضَعْفِ النُّصْرَةِ بِحَسَبِ مَا قَامَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ، وَنُكْتَةُ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ تَجْرِيدَ التَّوْحِيدَيْنِ فِي أَمْرِ اللَّهِ لَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ أَلْبَتَّةَ، وَصَاحِبُهُ مُؤَيَّدٌ مَنْصُورٌ وَلَوْ تَوَالَتْ عَلَيْهِ زُمَرُ الْأَعْدَاءِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا دَاوُد أَنْبَأَنَا شُعْبَةُ عَنْ وَاقِدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدٍ عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: مَنْ أَسْخَطَ النَّاسَ بِرِضَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَفَاهُ اللَّهُ النَّاسَ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسُخْطِ اللَّهِ وَكَّلَهُ إِلَى النَّاسِ.

وَالْعَبْدُ إِذَا عَزَمَ عَلَى فِعْلِ أَمْرٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ أَوَّلًا هَلْ هُوَ طَاعَةٌ لِلَّهِ أَمْ لَا؟ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ طَاعَةً فَلاَ يَفْعَلُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُبَاحًا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَحِينَئِذٍ يَصِيرُ طَاعَةً، فَإِذَا بَانَ لَهُ أَنَّهُ طَاعَةٌ فَلاَ يُقْدِمُ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْظُرَ هَلْ هُوَ مُعَانٌ عَلَيْهِ أَمْ لَا؟ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُعَانًا عَلَيْهِ فَلاَ يُقْدِمُ عَلَيْهِ فَيُذِلَّ نَفْسَهُ، وَإِنْ كَانَ مُعَانًا عَلَيْهِ بَقِيَ عَلَيْهِ نَظَرٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنْ يَأْتِيَهُ مِنْ بَابِهِ؛ فَإِنْ أَتَاهُ مِنْ غَيْرِ بَابِهِ أَضَاعَهُ أَوْ فَرَّطَ فِيهِ أَوْ أَفْسَدَ مِنْهُ شَيْئًا؛ فَهَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلاَثَةُ أَصْلُ سَعَادَةِ الْعَبْدِ وَفَلاَحِهِ، وَهِيَ مَعْنَى قَوْلِ الْعَبْدِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [سورة الفاتحة: ٥-٦].

فَأَسْعَدُ الْخَلْقِ أَهْلُ الْعِبَادَةِ وَالاِسْتِعَانَةِ وَالْهِدَايَةِ إِلَى الْمَطْلُوبِ، وَأَشْقَاهُمْ مَنْ عُدِمَ الْأُمُورَ الثَّلاَثَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وَنَصِيبُهُ مِنْ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مَعْدُومٌ أَوْ ضَعِيفٌ؛ فَهَذَا مَخْذُولٌ مُهِينٌ مَحْزُونٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نَصِيبُهُ مِنْ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَوِيًّا وَنَصِيبُهُ مِنْ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ضَعِيفًا أَوْ مَفْقُودًا؛ فَهَذَا لَهُ نُفُوذٌ وَتَسَلُّطٌ وَقُوَّةٌ، وَلَكِنْ لَا عَاقِبَةَ لَهُ، بَلْ عَاقِبَتُهُ أَسْوَأُ عَاقِبَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَلَكِنْ نَصِيبُهُ مِنْ الْهِدَايَةِ إِلَى الْمَقْصُودِ ضَعِيفٌ جِدًّا، كَحَالِ كَثِيرٍ مِنْ الْعِبَادِ وَالزُّهَّادِ الَّذِينَ قَلَّ عِلْمُهُمْ بِحَقَائِقِ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ مِنْ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ.

وَقَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " فَمَنْ خَلَصَتْ نِيَّتُهُ فِي الْحَقِّ وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ " إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يَكْفِي قِيَامُهُ فِي الْحَقِّ لِلَّهِ إِذَا كَانَ عَلَى غَيْرِهِ، حَتَّى يَكُونَ أَوَّلَ قَائِمٍ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ، فَحِينَئِذٍ يُقْبَلُ قِيَامُهُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ، وَإِلَّا فَكَيْفَ يُقْبَلُ الْحَقُّ مِمَّنْ أَهْمَلَ الْقِيَامَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ؟

وَأَمَّا قَوْلُهُ: " وَمَنْ تَزَيَّنَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ شَانَهُ اللَّهُ " لِمَا كَانَ الْمُتَزَيِّنُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ ضِدَّ الْمُخْلِصِ - فَإِنَّهُ يُظْهِرُ لِلنَّاسِ أَمْرًا وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِهِ - عَامَلَهُ اللَّهُ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ؛ فَإِنَّ الْمُعَاقَبَةَ بِنَقِيضِ الْقَصْدِ ثَابِتَةٌ شَرْعًا وَقَدَرًا، وَلَمَّا كَانَ الْمُخْلِصُ يُعَجَّلُ لَهُ مِنْ ثَوَابِ إِخْلَاصِهِ الْحَلَاوَةُ وَالْمَحَبَّةُ وَالْمَهَابَةُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ عُجِّلَ لِلْمُتَزَيِّنِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ مِنْ عُقُوبَتِهِ أَنْ شَانَهُ اللَّهُ بَيْنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ شَانَ بَاطِنَهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَهَذَا مُوجِبُ أَسْمَاءَ الرَّبِّ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا وَحِكْمَتِهِ فِي قَضَائِهِ وَشَرْعِهِ. اهـ

العلاج الرابع: العناية بنوافل العبادات

نوافل العبادات: هي الأعمال التعبدية الزائدة عن الفرائض التي شرعها الله سبحانه وتعالى لعباده، وتعتبر وسيلة للتقرب إليه سبحانه بعد أداء الواجبات.

فهي تشمل الصلاة والصيام والصدقة والحج وسائر العبادات التي لم يُفرض أداؤها، لكن القيام بها يُكسب المؤمن محبة الله وزيادة الأجر، ويُكمل بها ما قد يكون في الفرائض من نقص.

ونوافل العبادات من أعظم السبل التي تقود العبد إلى محبة الله عز وجل، فهي تزيده قربًا ورفعة عند ربه، وما مِنْ عبدٍ نال محبة الله تعالى إلا وملأ الله قلبه بأنوار السكينة وذاق حلاوةً ولذةً عميقة لا يعلم بها إلا الله سبحانه وتعالى.

هذه النوافل تصقل الروح، وتُعزّز الإيمان، وتغذي القلب بصفاءٍ وطُمأنينة، فتربط العبد بربه ربطًا متينًا، حتى يجد في عبادته لذةً تغنيه عن الدنيا وما فيها.

روى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»**.

قال ابن القيم في الجواب الكافي (٢/ ٢٢٥):

فَتَضَمَّنَ هَذَا الْحَدِيثُ الشَّرِيفُ الْإِلَهِيُّ - الَّذِي حَرَامٌ عَلَى غَلِيظِ الطَّبْعِ كَسِيفِ الْقَلْبِ فَهْمُ مَعْنَاهُ وَالْمُرَادُ بِهِ - حَصْرَ أَسْبَابِ مَحَبَّتِهِ فِي أَمْرَيْنِ: أَدَاءِ فَرَائِضِهِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ.

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ أَدَاءَ فَرَائِضِهِ أَحَبُّ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ الْمُتَقَرِّبُونَ، ثُمَّ بَعْدَهَا النَّوَافِلُ، وَأَنَّ الْمُحِبَّ لَا يَزَالُ يُكْثِرُ مِنَ النَّوَافِلِ حَتَّى يَصِيرَ مَحْبُوبًا لِلَّهِ، فَإِذَا صَارَ مَحْبُوبًا لِلَّهِ أَوْجَبَتْ مَحَبَّتُهُ لِلَّهِ لَهُ مَحَبَّةً أُخْرَى مِنْهُ فَوْقَ الْمَحَبَّةِ الْأُولَى، فَشَغَلَتْ هَذِهِ الْمَحَبَّةُ قَلْبَهُ عَنِ الْفِكْرَةِ وَالِاهْتِمَامِ بِغَيْرِ مَحْبُوبِهِ، وَمَلَكَتْ عَلَيْهِ رُوحَهُ، وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ سِعَةٌ لِغَيْرِ مَحْبُوبِهِ أَلْبَتَّةَ، فَصَارَ ذِكْرُ مَحْبُوبِهِ وَحُبُّهُ وَمَثَلُهُ الْأَعْلَى، وَمَالِكًا لِزِمَامِ قَلْبِهِ مُسْتَوْلِيًا عَلَى رُوحِهِ اسْتِيلَاءَ الْمَحْبُوبِ عَلَى مَحَبَّةِ الصَّادِقِ فِي مَحَبَّتِهِ، الَّتِي قَدِ اجْتَمَعَتْ قُوَى مَحَبَّةِ حُبِّهِ كُلُّهَا لَهُ.

وَتَأَمَّلْ كَيْفَ قَالَ: " **فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ** " وَلَمْ يَقُلْ: فَلِي يَسْمَعُ، وَلِي يُبْصِرُ، وَرُبَّمَا يَظُنُّ الظَّنَّانُ أَنَّ اللَّامَ أَوْلَى بِهَذَا الْمَوْضِعِ، إِذْ هِيَ أَدَلُّ عَلَى الْغَايَةِ، وَوُقُوعُ هَذِهِ الْأُمُورِ لِلَّهِ، وَذَلِكَ أَخَصُّ مِنْ وُقُوعِهَا بِهِ، وَهَذَا مِنَ الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ، إِذْ لَيْسَتِ الْبَاءُ هَاهُنَا بِمُجَرَّدِ الِاسْتِعَانَةِ، فَإِنَّ حَرَكَاتِ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ وَإِدْرَاكَاتِهِمْ إِنَّمَا هِيَ بِمَعُونَةِ اللَّهِ لَهُمْ، وَإِنَّ الْبَاءَ هَاهُنَا لِلْمُصَاحَبَةِ، أَيْ: إِنَّمَا يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَبْطِشُ وَيَمْشِي وَأَنَا صَاحِبُهُ مَعَهُ، كَقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ».

وَهَذِهِ هِيَ الْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: ٤٠].

وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا»، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩].

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة النحل: ١٢٨].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الأنفال: ٤٦].

وَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الشعراء: ٦٢].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طه: ٤٦].

فَهَذِهِ الْبَاءُ مُفِيدَةٌ لِمَعْنَى هَذِهِ الْمَعِيَّةِ دُونَ اللاَّمِ، وَلَا يَتَأَتَّى لِلْعَبْدِ الْإِخْلاَصُ وَالصَّبْرُ وَالتَّوَكُّلُ، وَنُزُولُهُ فِي مَنَازِلِ الْعُبُودِيَّةِ إِلَّا بِهَذِهِ الْبَاءِ وَهَذِهِ الْمَعِيَّةِ.

فَمَتَى كَانَ الْعَبْدُ بِاللَّهِ هَانَتْ عَلَيْهِ الْمَشَاقُّ، وَانْقَلَبَتِ الْمَخَاوِفُ فِي حَقِّهِ، فَبِاللَّهِ يَهُونُ كُلُّ صَعْبٍ، وَيَسْهُلُ كُلُّ عَسِيرٍ، وَيَقْرُبُ كُلُّ بَعِيدٍ، وَبِاللَّهِ تَزُولُ الْهُمُومُ وَالْغُمُومُ وَالْأَحْزَانُ، فَلاَ هَمَّ مَعَ اللَّهِ، وَلَا غَمَّ وَلَا حَزَنَ إِلَّا حَيْثُ يُفَوِّتُهُ الْعَبْدُ مَعْنَى هَذِهِ الْبَاءِ، فَيَصِيرُ قَلْبُهُ حِينَئِذٍ كَالْحُوتِ، إِذَا فَارَقَ الْمَاءَ يَثِبُ وَيَنْقَلِبُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ.

اهـ

فتأمل -علَّمنا الله وإياك- ما في هذا الحديث من المعاني العميقة، والثمار النفيسة الرفيعة؛ فإنها إشارات إلى مراتب القرب والمحبَّة، ومعارج السالكين إلى الله. وهذه

المعاني – كما قال ابن القيم رحمه الله – محرَّمة على مَن غلُظ طبعه، واشتدَّت كثافة قلبه، فلا يدرك لذَّتها ولا يفهم مرادها؛ لأنَّ صفاء القلب ورقتَه شرطٌ لفهم أسرار هذا القرب من الله تعالى، ومَن حُرِم هذه الرقة، حُرِمَ فهمها والانتفاع بها.

فالنوافل من أعظم وسائل تجديد الإيمان، فهي بمثابة أدوية روحية لا تزيد العبد إلا نقاءً وقوةً في إيمانه، وكلما أكثر منها، كلما شعرت روحه بحلاوة الإيمان بين الحين والآخر.

وقد كان السلف الصالح يهتمون بهذه العبادات المتنوعة، كما يظهر في سيرة الصحابة الكرام.

انظر إلى حال أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكيف كان حريصًا على النوافل في جميع أوقات يومه وليله. فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟**»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: "أَنَا". ثم سأل النبي ﷺ: «**فَمَنْ تَبِعَ مِنكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟**»، فأجاب أبو بكر رضي الله عنه: "أَنَا". ثم سأل: «**فَمَنْ أَطْعَمَ مِنكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟**»، فأجاب أبو بكر: "أَنَا". ثم قال: «**فَمَنْ عَادَ مِنكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟**»، فأجاب أبو بكر: "أَنَا". فقال رسول الله ﷺ: «**مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**».

هذا المثال العظيم يُظهر كيف أن النوافل تجتمع وتتكامل لتكون سببًا في رفع درجات المؤمن، وهو ما تحقق في حياة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي كان يحرص على أداء الأعمال الصالحة في كل لحظة من حياته.

والملائكة عند ربِّها تُنوِّع عبادتها لربها؛ فمنهم القائم، ومنهم الساجد، وكذلك هم متنوعون في مهامهم وتنفيذها عبوديةً لله؛ فمنهم حملة العرش، ومنهم السيَّارة في الطرق يَلتمسون حِلَق الذِّكْر، ومنهم الحفَظة.

إنَّ باب تنوُّع العبادات يعد من الأبواب المهمة التي تحمل أجرًا عظيمًا، كما جاء في حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إذ أن تنوع الأعمال الصالحة يساهم في زيادة الإيمان والقرب من الله سبحانه وتعالى.

فكل عبادة لها أثر خاص على القلب، ترفع عن المؤمن همومه وتمنحه شعورًا بالسكينة والطمأنينة.

قال القرطبي في المفهم (٢٠/ ٣):

قوله: «**من أصبح منكم اليوم صائمًا**؟ قال أبوبكر: أنا...» الحديث يدلّ على ما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه من التفقد لأحوال أصحابه، وإرشادهم إلى فعل الخير على اختلاف أنواعه، وعلى ما كان عليه أبو بكر من الحرص على فعل جميع أنواع الطاعات، وتتبعه أبوابها، واغتنام أوقاتها، وكأنه ما كان له هم إلا في طلب ذلك، والسَّعي في تحصيل ثوابه.

وقوله: «**ما اجتمعن في امرىء إلا دخل الجنة**»؛ ظاهره: أنَّ من اجتمع له فعل هذه الأبواب في يومٍ واحد دخل الجنة؛ فإنَّه قال فيها كلها: اليوم، اليوم، ولما أخبره أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه فعل تلك الأمور كلها في ذلك اليوم بشَّره بأنه من أهل الجنة لأجل

تلك الأمور، والمرجو من كرم الله تعالى أن من اجتمعت له تلك الأعمال في عمره، وإن لم تجتمع في يوم واحد أن يدخله الله الجنَّة بفضله، ووعده الصَّادق. اهـ

ففي تنويع العبادات أثرٌ عجيب جدًا في تذوق حلاوة الإيمان، حاله كمن نوَّع في شراء أنواع الفواكه فجعل كلما ذهبت حلاوة فاكهة تذوق غيرها فوجد فيها من اللذة والحلاوة ما لا يوصف، فلا يرجع بعد فترة إلى تذوق نفس الفاكهة الأولى إلا وجد لها حلاوة ولذة تتجدد له، بما قد لا يجدها إذا ظل يأكل مِن نفس الفاكهة لا يتعداها إلى غيرها، بل ربما أصابه الملل منها والسآمة ولو كانت مِن أغلى وأطيب الفاكهة.

وهكذا حال العبادات، بل وأشد مِن ذلك؛ فإنَّ العبد إذا لزِم عبادة واحدة لا يتعداها لغيرها صارت كالعادة عنده، فلا يشعر لها بلذة ولا بحلاوة، حتى إنَّه قد يصل به الأمر إلى أن يضيق صدره بها؛ إلا أن يرزقه الله حبها ويُذيقه حلاوتها.

ولهذا كان من كمال هذا الدين وجماله أن تنوعت الأذكار حتى في العبادة الواحدة ليشعر العبد بتجدد العبادة، ويذوق فيها حلاوة الإيمان.

وانظر إلى شأن الصلاة ترى ذلك رأي العين.

فانظر لمن لزِم سورًا معينة يقرأ بها لا يتعداها إلى غيرها كيف يكون حاله مع الصلاة، ومقدار محبته لها، حتى إنه ليدخل في الصلاة وهو يريد أن يقرأ غير السور التي أَلِف عليها، فلا يستطيع ويجد نفسه تعجز عن ذلك فيسارع إلى ما ألفت عليه نفسه، وما ذاك إلا من تسويل الشيطان ليذهب بروح صلاته وجمالها وكمالها.

وانظر إلى ذاك الآخر الذي يتقلب في رياض كتاب الله يقطف في كل ركعة سورة يقرأ بها، وهكذا هو في كل فرضٍ ونفلٍ، حتى تلذذ بقراءة القرآن واستعذب آياته، فخشع قلبه، فأورثه الله حلاوة يجدها في قلبه، لو وزنت بحلاوة الدنيا لفاقتها بأضعاف؛ بل لا يجد لها نظيرًا.

ولهذا مِن رحمة الله سبحانه وتعالى أن فتح أبواب الخير لعباده بأنواع الطاعات والنوافل، حتى يتقلب العبد في بساتينها دون كللٍ ولا مللٍ.

فلله الحمد والمنة.

العلاج الخامس: الإسراع بإزالة غيوم القلب

فهذا القلب لم يُسمَّ قلبًا إلا لكثرة تقلبه وتغير أحواله، فهو لا يثبت على حال واحدة. ومما لا شك فيه أن البشر جميعًا خطاؤون، ولا يخلو أحد من الوقوع في الذنوب والمعاصي إلا من عصمه الله وهم الأنبياء والرسل. وقد أشار الله إلى ذلك في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**»، وأكد النبي ﷺ ذلك فقال: «**كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**».

إنَّ هذه الذنوب والمعاصي كالغيم والضباب الذي يكسو القلب، فيحجب نوره وضياءه، فيفقد العبد لذة الطاعة وحلاوة الإيمان بسبب ما كدر قلبه وحجب ضياءه. وقد بيّن النبي ﷺ هذا الأمر بحديثٍ عظيم أورده الطبراني في "الأوسط" عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنَ الْقُلُوبِ قَلْبٌ إِلَّا وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ الْقَمَرِ، بَيْنَمَا الْقَمَرُ يُضِيءُ إِذْ عَلَتْهُ سَحَابَةٌ فَأَظْلَمَ، إِذْ تَجَلَّتْ عَنْهُ فَأَضَاءَ**».

ولهذا يقول ابن القيم عن آثار المعاصي:

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقةً، يحسّ بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهمَّ، فتصير ظلمةُ المعصية لقلبه كالظلمة الحسّية لبصره. فإنّ الطاعة نور، والمعصية ظلمة، وكلَّما قويت الظلمة ازدادت حيرته، حتّى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة، وهو لا يشعر، كأعمى خرج في ظلمة الليل يمشي

وحده. وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سوادًا فيه يراه كلّ أحد.

قال عبد الله بن عباس: إنَّ للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق. وإنّ للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمةً في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضةً في قلوب الخلق. اهـ[1]

فهذه الظلمة سببها غيوم المعصية التي تتراكم على القلب، وعلى الإنسان العاقل أن يجتهد في إزالة هذه الغيوم، وذلك بالإسراع إلى التوبة والعودة الصادقة إلى الله، والوقوف على بابه سائلاً بلسان الحال والمقال أن يمنَّ عليه بقبول توبته وإعادة النور إلى قلبه.

وقد وصف الله تعالى عباده المتقين بهذه السمة العظيمة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥].

تأمل هذه الآيات جيدًا، تجد أن الله سبحانه لم ينزِّه المؤمنين عن الذنوب والمعاصي، بل وصفهم بأنهم إذا زلت أقدامهم وأغواهم الشيطان سارعوا بالتوبة والإنابة، سائلين الله العفو والمغفرة.

---

[1] الداء والدواء ط المجمع (١/ ١٣٤)

وهكذا تزول الغيوم التي كانت حاجبة القلب عن لذة الإيمان، ويتجدد نوره. وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ في قوله: «**مَا مِنَ الْقُلُوبِ قَلْبٌ إِلَّا وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ الْقَمَرِ، بَيْنَمَا الْقَمَرُ يُضِيءُ إِذْ عَلَتْهُ سَحَابَةٌ فَأَظْلَمَ، إِذْ تَجَلَّتْ عَنْهُ فَأَضَاءَ**».

قال العلامة السعدي (ص: ١٤٩):

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: صدر منهم أعمال سيئة كبيرة، أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم، وما توعد به العاصين ووعد به المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فلهذا قال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. اهـ

وقال سبحانه وتعالى في وصف المتقين أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [سورة الأعراف: ٢٠١].

قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٣٤):

"يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أي: أصابهم "طيف" وقرأ آخرون: ﴿طَٰٓئِفٌ﴾، وقد جاء فيه حديث، وهما قراءتان مشهورتان، فقيل: بمعنى واحد. وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب.

وقوله: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أي: عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا، واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب. ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه". اهـ

فبالتوبة الصادقة والاستغفار الحقيقي، يعود القلب مشرقًا منيرًا، وتسترجع حلاوة الإيمان كما كانت، بل قد تزيد جمالًا وكمالًا عن حالته الأولى. إذ إن العبد بتوبته من ذنبه يعترف بتقصيره وضعفه وحاجته الدائمة إلى خالقه ومولاه، مما يجعله يتخلص من أكبر مفسد للأعمال، وهو العُجب. فعندما تُغسل آثار العجب من القلب بماء التوبة والإنابة إلى الله، يعود القلب طاهرًا، ناصع البياض، مليئًا بالنور والطهارة.

ولهذا يقول ابن القيم في كلام يكتب بماء الذهب:

الْوَجْهُ الْخَامِسُ: أَنَّ الذَّنْبَ قَدْ يَكُونُ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ إِذَا اقْتَرَنَتْ بِهِ التَّوْبَةُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ بَعْضِ السَّلَفِ: قَدْ يَعْمَلُ الْعَبْدُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيَعْمَلُ الطَّاعَةَ فَيَدْخُلُ بِهَا النَّارَ، قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: يَعْمَلُ الذَّنْبَ فَلاَ يَزَالُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ، إِنْ قَامَ وَإِنْ قَعَدَ وَإِنْ مَشَى ذَكَرَ ذَنْبَهُ، فَيُحْدِثُ لَهُ انْكِسَارًا، وَتَوْبَةً، وَاسْتِغْفَارًا، وَنَدَمًا، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ نَجَاتِهِ، وَيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ، فَلاَ تَزَالُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ، إِنْ قَامَ وَإِنْ قَعَدَ وَإِنْ مَشَى، كُلَّمَا ذَكَرَهَا أَوْرَثَتْهُ عُجْبًا وَكِبْرًا وَمِنَّةً، فَتَكُونُ سَبَبَ هَلاَكِهِ، فَيَكُونُ الذَّنْبُ مُوجِبًا لِتَرَتُّبِ طَاعَاتٍ وَحَسَنَاتٍ، وَمُعَامَلاَتٍ قَلْبِيَّةٍ، مِنْ خَوْفِ اللَّهِ وَالْحَيَاءِ مِنْهُ، وَالْإِطْرَاقِ بَيْنَ يَدَيْهِ مُنَكِّسًا رَأْسَهُ خَجَلاً، بَاكِيًا نَادِمًا،

مُسْتَقِيلاً رَبَّهُ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْآثَارِ أَنْفَعُ لِلْعَبْدِ مِنْ طَاعَةٍ تُوجِبُ لَهُ صَوْلَةً، وَكِبْرًا، وَازْدِرَاءً بِالنَّاسِ، وَرُؤْيَتَهُمْ بِعَيْنِ الِاحْتِقَارِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الذَّنْبَ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَقْرَبُ إِلَى النَّجَاةِ وَالْفَوْزِ مِنْ هَذَا الْمُعْجَبِ بِطَاعَتِهِ، الصَّائِلِ بِهَا، الْمَانِّ بِهَا، وَبِحَالِهِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعِبَادِهِ، وَإِنْ قَالَ بِلِسَانِهِ خِلَافَ ذَلِكَ، فَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ، وَيَكَادُ يُعَادِي الْخَلْقَ إِذَا لَمْ يُعَظِّمُوهُ وَيَرْفَعُوهُ، وَيَخْضَعُوا لَهُ، وَيَجِدُ فِي قَلْبِهِ بَغْضَةً لِمَنْ لَمْ يَفْعَلْ بِهِ ذَلِكَ، وَلَوْ فَتَّشَ نَفْسَهُ حَقَّ التَّفْتِيشِ لَرَأَى فِيهَا ذَلِكَ كَامِنًا، وَلِهَذَا تَرَاهُ عَاتِبًا عَلَى مَنْ لَمْ يُعَظِّمْهُ وَيَعْرِفْ لَهُ حَقَّهُ، مُتَطَلِّبًا لِعَيْبِهِ فِي قَالَبِ حَمِيَّةٍ لِلَّهِ، وَغَضَبٍ لَهُ، وَإِذَا قَامَ بِمَنْ يُعَظِّمُهُ وَيَحْتَرِمُهُ، وَيَخْضَعُ لَهُ مِنَ الذُّنُوبِ أَضْعَافَ مَا قَامَ بِهَذَا فَتَحَ لَهُ بَابَ الْمَعَاذِيرِ وَالرَّجَاءِ، وَأَغْمَضَ عَنْهُ عَيْنَهُ وَسَمْعَهُ، وَكَفَّ لِسَانَهُ وَقَلْبَهُ، وَقَالَ: بَابُ الْعِصْمَةِ عَنْ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ مَسْدُودٌ، وَرُبَّمَا ظَنَّ أَنَّ ذُنُوبَ مَنْ يُعَظِّمُهُ تُكَفَّرُ بِإِجْلَالِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَإِكْرَامِهِ إِيَّاهُ.

فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا الْعَبْدِ خَيْرًا أَلْقَاهُ فِي ذَنْبٍ يَكْسِرُهُ بِهِ، وَيُعَرِّفُهُ قَدْرَهُ، وَيَكْفِي بِهِ عِبَادَهُ شَرَّهُ، وَيُنَكِّسُ بِهِ رَأْسَهُ، وَيَسْتَخْرِجُ بِهِ مِنْهُ دَاءَ الْعُجْبِ وَالْكِبْرِ وَالْمِنَّةِ عَلَيْهِ وَعَلَى عِبَادِهِ، فَيَكُونُ هَذَا الذَّنْبُ أَنْفَعَ لِهَذَا مِنْ طَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ شُرْبِ الدَّوَاءِ لِيَسْتَخْرِجَ بِهِ الدَّاءَ الْعُضَالَ، كَمَا قِيلَ بِلِسَانِ الْحَالِ فِي قِصَّةِ آدَمَ وَخُرُوجِهِ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبِهِ:

يَا آدَمُ، لَا تَجْزَعْ مِنْ كَأْسِ زَلَلٍ كَانَتْ سَبَبَ كَيْسِكَ، فَقَدِ اسْتُخْرِجَ بِهَا مِنْكَ دَاءٌ لَا يَصْلُحُ أَنْ تُجَاوِرَنَا بِهِ، وَأُلْبِسْتَ بِهَا حُلَّةَ الْعُبُودِيَّةِ.

لَعَـلَّ عَتْبَـكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُـهُ وَرُبَّمَا صَـحَّتِ الْأَجْسَـامُ بِالْعِلَلِ

انتهى كلامه رحمه الله. (١)

فعلى العبد إذا وقع في مستنقع المعصية أن يسارع بالرجوع والتوبة إلى الله، قبل أن تُغلق أمامه أبوابها، فيغطي الران قلبه ويذوق مرارة البعد عن خالقه ومولاه.

وقد جاء في حديث أبي هريرة عند الترمذي أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ**». ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة المطففين: ١٤].

ومعنى الحديث أن العبد إذا ارتكب خطيئة، فإنَّ أثر هذه الخطيئة يظهر كنقطة سوداء في قلبه، مما يدل على تشويش صفاء القلب وطمس نوره. فإذا تاب العبد عن ذنبه وندم واستغفر، زالت تلك النقطة وعاد قلبه نقيًّا صافيًا. أما إذا استمر في الذنب ولم يتب، ازدادت هذه النقاط السوداء حتى تغطي القلب بالكامل، ويصبح القلب مظلمًا بسبب الذنوب المتراكمة عليه، وهو ما يسمى بـ"الرَّان" الذي ذكره الله في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة المطففين: ١٤].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٠٧).

فمن أقبل على باب التوبة من المعاصي، انكشفت له أسرارٌ من حكمة الله في ابتلائه بالذنب ثم منّته عليه أن فتح له باب التوبة، فيرى فضل الله عليه ورحمته العظيمة.

وسأُورد لك هنا كلامًا لابن القيم، فلا تملَّ من قراءته كلِّه، فيحملك ذلك على أن تتجاوزه وتمرَّ عليه مرورًا عابرًا، بل تأمل معانيه جيدًا لتدرك عظيم فضل الله عليك ونعمه، فتزداد محبةً له سبحانه، ويزداد قلبك صفاءً وإشراقًا، حتى يشعَّ نور الإيمان فيه، فلو أنَّه أُخرج من موضعه لأضاء الأرض مِن حوله.

قال ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٢٢١):

"اعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَ الْبَصِيرَةِ إِذَا صَدَرَتْ مِنْهُ الْخَطِيئَةُ فَلَهُ نَظَرٌ إِلَى خَمْسَةِ أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَنْظُرَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ، فَيُحْدِثَ لَهُ ذَلِكَ الِاعْتِرَافَ بِكَوْنِهَا خَطِيئَةً، وَالْإِقْرَارَ عَلَى نَفْسِهِ بِالذَّنْبِ.

الثَّانِي: أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، فَيُحْدِثَ لَهُ ذَلِكَ خَوْفًا وَخَشْيَةً، تَحْمِلُهُ عَلَى التَّوْبَةِ.

الثَّالِثُ: أَنْ يَنْظُرَ إِلَى تَمْكِينِ اللَّهِ لَهُ مِنْهَا، وَتَخْلِيَتِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، وَتَقْدِيرِهَا عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَعَصَمَهُ مِنْهَا، فَيُحْدِثُ لَهُ ذَلِكَ أَنْوَاعًا مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَمَغْفِرَتِهِ وَعَفْوِهِ، وَحِلْمِهِ وَكَرَمِهِ، وَتُوجِبُ لَهُ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ عُبُودِيَّةً بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ، لَا تَحْصُلُ بِدُونِ لَوَازِمِهَا الْبَتَّةَ، وَيَعْلَمُ ارْتِبَاطَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ،

وَالْجَزَاءِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مُوجَبُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَأَثَرُهَا فِي الْوُجُودِ، وَأَنَّ كُلَّ اسْمٍ وَصِفَةٍ مُقْتَضٍ لِأَثَرِهِ وَمُوجَبِهِ، مُتَعَلِّقٌ بِهِ لَا بُدَّ مِنْهُ.

وَهَذَا الْمَشْهَدُ يُطْلِعُهُ عَلَى رِيَاضٍ مُونِقَةٍ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْإِيمَانِ، وَأَسْرَارُ الْقَدَرِ وَالْحِكْمَةِ يَضِيقُ عَنِ التَّعْبِيرِ عَنْهَا نِطَاقُ الْكَلِمِ.

فَمِنْ بَعْضِهَا: مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ أَنْ يَعْرِفَ الْعَبْدُ عِزَّتَهُ فِي قَضَائِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْعَزِيزُ الَّذِي يَقْضِي بِمَا يَشَاءُ، وَأَنَّهُ لِكَمَالِ عِزَّتِهِ حَكَمَ عَلَى الْعَبْدِ وَقَضَى عَلَيْهِ، بِأَنْ قَلَّبَ قَلْبَهُ وَصَرَّفَ إِرَادَتَهُ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَحَالَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَهُ مُرِيدًا شَائِيًا لِمَا شَاءَ مِنْهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ الْعِزَّةِ، إِذْ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ، وَغَايَةُ الْمَخْلُوقِ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي بَدَنِكَ وَظَاهِرِكَ، وَأَمَّا جَعْلُكَ مُرِيدًا شَائِيًا لِمَا يَشَاؤُهُ مِنْكَ وَيُرِيدُهُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا ذُو الْعِزَّةِ الْبَاهِرَةِ.

فَإِذَا عَرَفَ الْعَبْدُ عِزَّ سَيِّدِهِ وَلَاحَظَهُ بِقَلْبِهِ، وَتَمَكَّنَ شُهُودَهُ مِنْهُ، كَانَ الِاشْتِغَالُ بِهِ عَنْ ذُلِّ الْمَعْصِيَةِ أَوْلَى بِهِ وَأَنْفَعَ لَهُ، لِأَنَّهُ يَصِيرُ مَعَ اللَّهِ لَا مَعَ نَفْسِهِ.

وَمِنْ مَعْرِفَةِ عِزَّتِهِ فِي قَضَائِهِ: أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُ مُدَبَّرٌ مَقْهُورٌ، نَاصِيَتُهُ بِيَدِ غَيْرِهِ، لَا عِصْمَةَ لَهُ إِلَّا بِعِصْمَتِهِ، وَلَا تَوْفِيقَ لَهُ إِلَّا بِمَعُونَتِهِ، فَهُوَ ذَلِيلٌ حَقِيرٌ، فِي قَبْضَةِ عَزِيزٍ حَمِيدٍ.

وَمِنْ شُهُودِ عِزَّتِهِ أَيْضًا فِي قَضَائِهِ: أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ الْكَمَالَ وَالْحَمْدَ، وَالْغَنَاءَ التَّامَّ، وَالْعِزَّةَ كُلَّهَا لِلَّهِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ نَفْسَهُ أَوْلَى بِالتَّقْصِيرِ وَالذَّمِّ، وَالْعَيْبِ وَالظُّلْمِ وَالْحَاجَةِ،

وَكُلَّمَا ازْدَادَ شُهُودُهُ لِذُلِّهِ وَنَقْصِهِ وَعَيْبِهِ وَفَقْرِهِ، ازْدَادَ شُهُودُهُ لِعِزَّةِ اللَّهِ وَكَمَالِهِ، وَحَمْدِهِ وَغِنَاهُ، وَكَذَلِكَ بِالْعَكْسِ، فَنَقْصُ الذَّنْبِ وَذِلَّتُهُ يُطْلِعُهُ عَلَى مَشْهَدِ الْعِزَّةِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْعَبْدَ لَا يُرِيدُ مَعْصِيَةَ مَوْلَاهُ مِنْ حَيْثُ هِيَ مَعْصِيَةٌ، فَإِذَا شَهِدَ جَرَيَانَ الْحُكْمِ، وَجَعْلَهُ فَاعِلاً لِمَا هُوَ غَيْرُ مُخْتَارٍ لَهُ، مُرِيدٌ بِإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ، فَكَأَنَّهُ مُخْتَارٌ غَيْرُ مُخْتَارٍ، مُرِيدٌ غَيْرُ مُرِيدٍ، شَاءٍ غَيْرُ شَاءٍ، فَهَذَا يَشْهَدُ عِزَّةَ اللَّهِ وَعَظَمَتَهُ، وَكَمَالَ قُدْرَتِهِ.

وَمِنْهَا: أَنْ يَعْرِفَ بِرَّهُ سُبْحَانَهُ فِي سَتْرِهِ عَلَيْهِ حَالَ ارْتِكَابِ الْمَعْصِيَةِ، مَعَ كَمَالِ رُؤْيَتِهِ لَهُ، وَلَوْ شَاءَ لَفَضَحَهُ بَيْنَ خَلْقِهِ فَحَذِرُوهُ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ بِرِّهِ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ: الْبَرُّ، وَهَذَا الْبِرُّ مِنْ سَيِّدِهِ كَانَ بِهِ كَمَالُ غِنَاهُ عَنْهُ، وَكَمَالُ فَقَرِ الْعَبْدِ إِلَيْهِ، فَيَشْتَغِلُ بِمُطَالَعَةِ هَذِهِ الْمِنَّةِ، وَمُشَاهَدَةِ هَذَا الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ وَالْكَرَمِ، فَيَذْهَلُ عَنْ ذِكْرِ الْخَطِيئَةِ، فَيَبْقَى مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَذَلِكَ أَنْفَعُ لَهُ مِنَ الاشْتِغَالِ بِجِنَايَتِهِ، وَشُهُودِ ذُلِّ مَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ الاشْتِغَالَ بِاللَّهِ وَالْغَفْلَةَ عَمَّا سِوَاهُ هُوَ الْمَطْلَبُ الْأَعْلَى، وَالْمَقْصِدُ الْأَسْنَى.

وَلَا يُوجِبُ هَذَا نِسْيَانَ الْخَطِيئَةِ مُطْلَقًا، بَلْ فِي هَذِهِ الْحَالِ، فَإِذَا فَقَدَهَا فَلْيَرْجِعْ إِلَى مُطَالَعَةِ الْخَطِيئَةِ، وَذِكْرِ الْجِنَايَةِ، وَلِكُلِّ وَقْتٍ وَمَقَامٍ عُبُودِيَّةٌ تَلِيقُ بِهِ.

وَمِنْهَا: شُهُودُ حِلْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي إِمْهَالِ رَاكِبِ الْخَطِيئَةِ، وَلَوْ شَاءَ لَعَاجَلَهُ بِالْعُقُوبَةِ، وَلَكِنَّهُ الْحَلِيمُ الَّذِي لَا يُعَجِّلُ، فَيُحْدِثُ لَهُ ذَلِكَ مَعْرِفَةَ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ بِاسْمِهِ الْحَلِيمِ، وَمُشَاهَدَةَ صِفَةِ الْحِلْمِ، وَالتَّعَبُّدَ بِهَذَا الاسْمِ، وَالْحِكْمَةُ وَالْمَصْلَحَةُ

الْحَاصِلَةُ مِنْ ذَلِكَ بِتَوَسُّطِ الذَّنْبِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ، وَأَصْلَحُ لِلْعَبْدِ، وَأَنْفَعُ مِنْ فَوْتِهَا، وَوُجُودُ الْمَلْزُومِ بِدُونِ لَازِمِهِ مُمْتَنِعٌ.

وَمِنْهَا: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ كَرَمَ رَبِّهِ فِي قَبُولِ الْعُذْرِ مِنْهُ إِذَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ بِنَحْوِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الاِعْتِذَارِ، لَا بِالْقَدَرِ، فَإِنَّهُ مُخَاصَمَةٌ وَمُحَاجَّةٌ، كَمَا تَقَدَّمَ، فَيَقْبَلُ عُذْرَهُ بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ، فَيُوجِبُ لَهُ ذَلِكَ اشْتِغَالًا بِذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ، وَمَحَبَّةً أُخْرَى لَمْ تَكُنْ حَاصِلَةً لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَإِنَّ مَحَبَّتَكَ لِمَنْ شَكَرَكَ عَلَى إِحْسَانِكَ وَجَازَاكَ بِهِ، ثُمَّ غَفَرَ لَكَ إِسَاءَتَكَ وَلَمْ يُؤَاخِذْكَ بِهَا أَضْعَافُ مَحَبَّتِكَ عَلَى شُكْرِ الْإِحْسَانِ وَحْدَهُ، وَالْوَاقِعُ شَاهِدٌ بِذَلِكَ، فَعُبُودِيَّةُ التَّوْبَةِ بَعْدَ الذَّنْبِ لَوْنٌ، وَهَذَا لَوْنٌ آخَرُ.

وَمِنْهَا: أَنْ يَشْهَدَ فَضْلَهُ فِي مَغْفِرَتِهِ، فَإِنَّ الْمَغْفِرَةَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ، وَإِلَّا فَلَوْ أَخَذَكَ بِمَحْضِ حَقِّهِ، كَانَ عَادِلًا مَحْمُودًا، وَإِنَّمَا عَفْوُهُ بِفَضْلِهِ لَا بِاسْتِحْقَاقِكَ، فَيُوجِبُ لَكَ ذَلِكَ أَيْضًا شُكْرًا لَهُ وَمَحَبَّةً، وَإِنَابَةً إِلَيْهِ، وَفَرَحًا وَابْتِهَاجًا بِهِ، وَمَعْرِفَةً لَهُ بِاسْمِهِ الْغَفَّارِ وَمُشَاهَدَةً لِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَتَعَبُّدًا بِمُقْتَضَاهَا، وَذَلِكَ أَكْمَلُ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةِ وَالْمَعْرِفَةِ.

وَمِنْهَا: أَنْ يُكَمِّلَ لِعَبْدِهِ مَرَاتِبَ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالاِنْكِسَارِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالاِفْتِقَارِ إِلَيْهِ، فَإِنَّ النَّفْسَ فِيهَا مُضَاهَاةٌ لِلرُّبُوبِيَّةِ، وَلَوْ قَدَرَتْ لَقَالَتْ كَقَوْلِ فِرْعَوْنَ، وَلَكِنَّهُ قَدَرَ فَأَظْهَرَ، وَغَيْرُهُ عَجَزَ فَأَضْمَرَ، وَإِنَّمَا يُخَلِّصُهَا مِنْ هَذِهِ الْمُضَاهَاةِ ذُلُّ الْعُبُودِيَّةِ، وَهُوَ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ:

الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى: مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الْخَلْقِ، وَهِيَ ذُلُّ الْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ إِلَى اللَّهِ، فَأَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَمِيعًا مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، فُقَرَاءُ إِلَيْهِ، وَهُوَ وَحْدَهُ الْغَنِيُّ عَنْهُمْ، وَكُلُّ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسْأَلُونَهُ، وَهُوَ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا.

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: ذُلُّ الطَّاعَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ، وَهُوَ ذُلُّ الِاخْتِيَارِ، وَهَذَا خَاصٌّ بِأَهْلِ طَاعَتِهِ، وَهُوَ سِرُّ الْعُبُودِيَّةِ.

الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: ذُلُّ الْمَحَبَّةِ، فَإِنَّ الْمُحِبَّ ذَلِيلٌ بِالذَّاتِ، وَعَلَى قَدْرِ مَحَبَّتِهِ لَهُ يَكُونُ ذُلُّهُ، فَالْمَحَبَّةُ أُسِّسَتْ عَلَى الذِّلَّةِ لِلْمَحْبُوبِ، كَمَا قِيلَ:

اخْضَعْ وَذُلَّ لِمَنْ تُحِبُّ فَلَيْسَ فِي... حُكْمِ الْهَوَى أَنَفٌ يُشَالُ وَيُعْقَدُ

وَقَالَ آخَرُ:

مَسَاكِينُ أَهْلِ الْحُبِّ حَتَّى قُبُورُهُمْ... عَلَيْهَا تُرَابُ الذُّلِّ بَيْنَ الْمَقَابِرِ

الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: ذُلُّ الْمَعْصِيَةِ وَالْجِنَايَةِ.

فَإِذَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْمَرَاتِبُ الْأَرْبَعُ كَانَ الذُّلُّ لِلَّهِ وَالْخُضُوعُ لَهُ أَكْمَلَ وَأَتَمَّ، إِذْ يَذِلُّ لَهُ خَوْفًا وَخَشْيَةً، وَمَحَبَّةً وَإِنَابَةً، وَطَاعَةً، وَفَقْرًا وَفَاقَةً.

وَحَقِيقَةُ ذَلِكَ هُوَ الْفَقْرُ الَّذِي يُشِيرُ إِلَيْهِ الْقَوْمُ، وَهَذَا الْمَعْنَى أَجَلُّ مِنْ أَنْ يُسَمَّى بِالْفَقْرِ، بَلْ هُوَ لُبُّ الْعُبُودِيَّةِ وَسِرُّهَا، وَحُصُولُهُ أَنْفَعُ شَيْءٍ لِلْعَبْدِ، وَأَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى اللَّهِ.

فَلَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ لَوَازِمِهِ مِنْ أَسْبَابِ الضَّعْفِ وَالْحَاجَةِ، وَأَسْبَابِ الْعُبُودِيَّةِ وَالطَّاعَةِ، وَأَسْبَابِ الْمَحَبَّةِ وَالْإِنَابَةِ، وَأَسْبَابِ الْمَعْصِيَةِ وَالْمُخَالَفَةِ، إِذْ وُجُودُ الْمَلْزُومِ

بِدُونِ لَازِمِهِ مُمْتَنِعٌ، وَالْغَايَةُ مِنْ تَقْدِيرِ عَدَمِ هَذَا الْمَلْزُومِ وَلَازِمِهِ، مَصْلَحَةُ وُجُودِهِ خَيْرٌ مِنْ مَصْلَحَةِ فَوْتِهِ، وَمَفْسَدَةُ فَوْتِهِ أَكْبَرُ مِنْ مَفْسَدَةِ وُجُودِهِ، وَالْحِكْمَةُ مَبْنَاهَا عَلَى دَفْعِ أَعْظَمِ الْمَفْسَدَتَيْنِ بِاحْتِمَالِ أَدْنَاهُمَا، وَتَحْصِيلِ أَعْظَمِ الْمَصْلَحَتَيْنِ بِتَفْوِيتِ أَدْنَاهُمَا، وَقَدْ فَتَحَ لَكَ الْبَابَ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ فَادْخُلْ، وَإِلَّا فَرُدَّ الْبَابَ وَارْجِعْ بِسَلَامٍ. انتهى كلامه رحمه الله.

العلاج السادس: الإكثار مِن ذكر الله

إنَّ انشغال القلب واللسان بذكر الله سبحانه وتعالى دليل على تعلق العبد بربه ودليل على محبةٍ صادقةٍ له؛ فالمحب لا يفتر عن ذكر محبوبه قولًا وعملاً.

لذا، كان الذكر من أعظم الأدوية وأنجعها لتجديد الإيمان في القلب، ليذوق العبد حلاوته ويسعد به في حياته.

روى الحاكم في المستدرك عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ الْخَلِقُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**».

فما ذهبت حلاوة الإيمان، وتساقطت أوراقه بمثل قسوة القلب، ولا أشرقت شمس القلب وتجددت أنواره بمثل ذكر الله سبحانه وتعالى.

ولهذا يقول ابن القيم رحمه الله:

"إن في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله تعالى، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالى.

وذُكِر أنَّ رجلاً قال للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلب. قال: أذبه بالذكر.

وهذا لأنَّ القلب كلما اشتدت به الغفلة، اشتدت به القسوة، فإذا ذكَرَ الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار.

فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله عز وجل". اهـ[١]

فكيف لا يكون ذلك وقد أمر به ربنا سبحانه وتعالى عباده في كتابه كثيرًا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾ [سورة الأحزاب: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۚ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ [سورة الشعراء: ٢٢٧].

وقال: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [سورة الأحزاب: ٢١].

وقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ [سورة الأحزاب: ٣٥].

ولو لم يكن في فضل الذكر إلا قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [سورة البقرة: ١٥٢].

هذه الآية تفتح للمؤمن بابًا من الأنس بالله فتجعل العبد ذاكرًا لله في كل حالاته، في سره وعلانيته، في غناه وفقره، في فرحه وحزنه، فتجد المؤمن يلتجئ إلى ذكر الله في كل أمور حياته، لأنه مصدر الراحة والعون، وبه تتيسر الصعاب وتزول الهموم.

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٧١).

وما ذكر عبدٌ ربَّه إلا وجد لذلك أثرًا في قلبه، إذ يقوى به إيمانه ويزيد تعلقه بربه، فتظهر آثار الذكر على لسانه وجوارحه وأفعاله، ويشعر بحلاوة الإيمان وطعمه الذي يملأ قلبه رضا وطمأنينة.

ولذلك كان سلفنا الصالح شديدي الحرص على تفقد قلوبهم بذكر الله عز وجل، فكانوا يعتبرونه زادًا لحياتهم ورأس مالهم، يوقنون بأنَّ الذكر هو طريق السعادة في الدنيا والآخرة، وكانوا يتفقَّدون أنفسهم ليحافظوا على استمرار هذه النعمة، فإذا أحسَّ أحدهم بشيء من قسوة القلب، أسرع إلى الإكثار من ذكر الله ليرقق قلبه ويعيد إليه حيويته ونقاءه.

فقد جاء في "شعب الإيمان"؛ للبيهقي: عن عطاء بن يسار أنَّ عبد الله بن رواحة قال لصاحبٍ له: "تعالَ حتى نؤمِن ساعة، قال: أوَلسنا مؤمنين؟ قال: بلى، ولكنَّا نذكر الله فنزداد إيمانًا".

وقال معاذ بن جبل لأحد أصحابه يتذاكَر معه: "اجلس بنا نؤمن ساعة"؛ رواه البخاري في "صحيحه" معلَّقًا.

وفي رواية: كان معاذ بن جبل يقول للرجل من إخوانه: "اجلس بنا نؤمِن ساعة، فيجلسان فيذكران الله – تعالى – ويحمدانه"

فالذاكر لله تعالى يجد في قلبه نورًا وراحة وسكينة لا يمكن وصفها، وهي هبة عظيمة يشعر بها المؤمن الذي يواظب على ذكر الله بصدق وخشوع، ولا أدلَّ على ذلك مِن حديث حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ حيث قال لرسول الله ﷺ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا

رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ«**وَمَا ذَاكَ؟**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً**». رواه مسلم.

وفي رواية: «**يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَوْ كَانَتْ تَكُونُ قُلُوبُكُمْ كَمَا تَكُونُ عِنْدَ الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ، حَتَّى تُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ فِي الطُّرُقِ**»

وإنَّ أعظم الذكر وأفضله هو القرآن الكريم، فهو كلام الله سبحانه وتعالى، وهو أحسن الكلام وأعظمه. ففيه من البركة والنور والهداية ما لا يُحصى، فهو روحٌ تحيي القلوب، وشفاءٌ لما في الصدور، ونورٌ يهدي إلى الحق.

فمن اعتاد على تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وداوم على تدبر آياته والتأمل في معانيه، اشتد صفاء قلبه وتطهر من شوائب الغفلة، وعظُمت أنواره، فيجد بريق الحكمة يفيض على لسانه، ويشع الضياء من وجهه وجوارحه، ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤﴾.

قال شيخ الإسلام في الفرقان (ص: ١٩٢):

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَلْيَنْظُرْ فَإِنْ كَانَ يُحِبُّ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ". وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عفان رضي الله عنه: لَوْ أَنَّ قُلُوبَنَا طَهُرَتْ ما شَبِعَتْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: الذِّكْرُ يُنْبِتُ

الْإِيمَانَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ وَالْغِنَاءُ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ. وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ خَبِيرًا بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنَةِ فَارِقًا بَيْنَ الْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ.

فَيَكُونُ قَدْ قَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نُورِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾ [سورة الحديد: ٢٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [سورة الشورى: ٥٢]. اهـ

وكذلك سائر الأذكار، فإنَّ لكل ذكرٍ موضعًا يناسبه، ولكل حالٍ ما يجمُل فيه الذكر ويزداد جماله وحسنه، فسبحان الله الذي جعل الذكر مفتاحًا لأبواب الفضل والرحمة.

ويا للعجب! كيف يطلب المرء حلاوة الإيمان، ونور القلب، وبهاء الروح، وهو قد جفَّ لسانه من ذكر الله تعالى؟! ألا يعلم أنَّ هذا الذكر هو عصب قوته القلبية والجسدية، ومصدر طاقته الروحية التي يحيى بها قلبه وتسمو بها روحه؟!

فذكر الله تعالى يمنح الذاكر قوةً تفوق الخيال، فهو يقوي القلب، ويشدُّ من عزيمة البدن، بل ويتجاوز ذلك إلى أثرٍ بارز في كلامه، ونظره، وسمعه، فيصبح خطابُه مؤثرًا، ومواعظُه نافذة، وأعمالُه مباركة.

وهذا كله من بركات نور الإيمان الذي يملأ قلبه، ويسقيه بماء الذكر، فيُثمر في قلبه وجوارحه أطيب الثمار وألذَّها.

قال ابن القيم في الوابل الصيب (ص: ١٠٦):

"إنَّ الذكر يعطي الذاكر قوة حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سننه وكلامه وإقدامه وكتابه أمرا عجيبا فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعه وأكثر وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمرا عظيما وقد علم النبي صلى الله عليه و سلم ابنته فاطمة وعليا رضي الله عنهما أن يسبحا كل ليلة إذا أخذوا مضاجعهما ثلاثا وثلاثين ويحمدا ثلاثا وثلاثين ويكبرا أربعا وثلاثين لما سألته الخادم وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة فعلمها ذلك وقال: إنه خير لكما من خادم فقيل أن من داوم على ذلك وجد قوة في يومه مغنيه عن خادم. اهـ

وانظر إلى ذلك الكنز مِن كنوز الجنة وما جعل الله فيها مِن البركات، وعجائب الأمور، وهي كلمة "لا حول ولا قوة إلا بالله".

قال شيخ الإسلام: وَلْيَكُنْ هَجِيرَاهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ فَإِنَّهَا بِهَا تُحْمَلُ الْأَثْقَالُ وَتُكَابَدُ الْأَهْوَالُ وَيُنَالُ رَفِيعُ الْأَحْوَالِ. اهـ مجموع الفتاوى (١٠/ ١٣٧)

قال ابن القيم في الوابل الصيب (ص: ٧٧):

وهذه الكلمة لها تأثير عجيب في معالجة الأشغال الصعبة وتحمل المشاق والدخول على الملوك ومن يخاف وركوب الأهوال.

وكان حبيب بن سلمة يستحب إذا لقي عدوا أو ناهض حصنا قال: "لا حول ولا قوة إلا بالله"، وإنه ناهض يوما حصنًا للروم فانهزم فقالها المسلمون وكبروا فانهدم الحصن. اهـ

وقال في الزاد (٤/ ١٩٣):

وَأَمَّا تَأْثِيرُ " لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ " فِي دَفْعِ هَذَا الدَّاءِ -أي الهم والغم- فَلِمَا فِيهَا مِنْ كَمَالِ التَّفْوِيضِ، وَالتَّبَرِّي مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، إِلَّا بِهِ وَتَسْلِيمِ الْأَمْرِ كُلِّهِ لَهُ، وَعَدَمِ مُنَازَعَتِهِ فِي شَيْءٍ مِنْهُ، وَعُمُومُ ذَلِكَ لِكُلِّ تَحَوُّلٍ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ، وَالسُّفْلِيِّ، وَالْقُوَّةِ عَلَى ذَلِكَ التَّحَوُّلِ، وَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ بِاللَّهِ، وَحْدَهُ فَلَا يَقُومُ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ شَيْءٌ. وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ إِنَّهُ مَا يَنْزِلُ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَا يَصْعَدُ إِلَيْهَا إِلَّا بِلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَهَا تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي طَرْدِ الشَّيْطَانِ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ. اهـ

فمن أراد العزَّ والرفعة وأن تتجدد في قلبه حلاوة الإيمان فعليه بملازمة الذكر من تلاوة القرآن والأذكار المتنوعة.

فالذكر زاد القلوب، وطريق العبد للتعلق بربه وحب الله له، وهي وصية النبي ﷺ لنا كما في حديث عبد الله بن بسرٍ رضي الله عنه: أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلاَمِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَنْبِئْنِي مِنْهَا بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: «**لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**». رواه ابن ماجه.

فلما أراد بابًا جامعًا يتمسك به من أبواب الخير فيما يتعلق بالنوافل أرشده النبي ﷺ ألا يزال لسانه رطبًا من ذكر الله عز وجل؛ وذلك بكثرة ذكر الله سبحانه وتعالى.

قال الملا علي القاري في مرقاة المفاتيح (٤/ ١٥٥٨):

"**إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ**": الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا هُنَا النَّوَافِلُ لِقَوْلِهِ: "**قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ**": أَيْ: غَلَبَتْ عَلَى الْكَثْرَةِ حَتَّى عَجَزْتُ عَنْهَا لِضَعْفِي، "**فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ**": قِيلَ: أَيْ: بِشَيْءٍ قَلِيلٍ مُوجِبٍ لِجَزَاءٍ جَزِيلٍ أَسْتَغْنِي بِهِ عَمَّا يَغْلِبُنِي وَيَشُقُّ عَلَيَّ.

وَالْأَظْهَرُ أَنَّ التَّنْوِينَ لِمُجَرَّدِ التَّنْكِيرِ أَيْ: أَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ "**أَتَشَبَّثُ**": أَيْ: أَتَعَلَّقُ "**بِهِ**": مِنْ عِبَادَةٍ جَامِعَةٍ غَيْرِ شَاقَّةٍ مَانِعَةٍ فِي مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ، وَزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ، وَحَالٍ دُونَ حَالٍ مِنْ قِيَامٍ وَقُعُودٍ، وَأَكْلٍ وَشُرْبٍ، وَمُخَالَطَةٍ وَاعْتِزَالٍ، وَشَبَابٍ وَهِرَمٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَيَكُونُ جَابِرًا عَنْ بَقِيَّتِهَا مُشْتَمِلاً عَلَى كُلِّيَّتِهَا. اهـ

العلاج السابع: الرضا بالله تعالى

نختتم بهذا العلاج كما ابتدأنا به، لأنه يمثل أساس الإيمان ولبَّه.

فالرضا بالله تعالى هو شعور عميق يمتلئ به قلب المؤمن، حتى يصل به إلى مرحلة التسليم الكامل لربه سبحانه وتعالى.

وهذا الرضا هو السبيل الذي يسلكه العبد المؤمن ليصل إلى حالة الطمأنينة القلبية وحلاوة الإيمان، فلا يكون إيمانه مجرد اعتقاد نظري، بل شعور ينبض في قلبه ويفيض في أفعاله وسلوكه.

فالرضا هو باب الله الأعظم، الذي من دخله وجد الراحة والسكينة في الدنيا قبل الآخرة. وقد قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصيته لأبي موسى الأشعري: "أما بعد، فإنَّ الخير كلَّه في الرضا؛ فإن استطعت أن ترضى، وإلا فاصبر."

فهذا القول يُظهر لنا بوضوح أن الرضا أعلى مراتب الإيمان، وهو الحالة التي يتحقق فيها الخير كلُّه. وإن لم يستطع المؤمن الوصول إليه، فعليه بالصبر، لأن الصبر يقربه من الرضا ويهذب نفسه ويزيد من إيمانه.

والرضا بالله وعن الله ليس مجرد حالة عابرة أو ترديد عبارات، بل هو سبيل المحسنين الذين بلغوا أعلى مراتب التوكل على الله والثقة به سبحانه.

هؤلاء الذين يرضون بحكم الله وقدره، سواء كان خيرًا أم شرًّا، سواء أصابهم رخاء أم شدَّة. فلا يعترضون على قضائه، ولا يتذمرون من أحكامه، بل ينظرون إليها بعين الرضا والتسليم.

ولذلك، قال النبي ﷺ في حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: «**ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**».

فالراضي بالله يذوق طعم الإيمان بحق؛ إذ يكون إيمانه شعورًا حيًّا في قلبه، يتذوقه، ويشعر بحلاوته، مما يجعله لا يشعر بالضيق مهما واجه من مصائب أو عقبات في حياته.

فكل أمر يمر به يكون على يقين أنَّ فيه حكمةً من الله ورحمة.

فصلٌ:

الرضا بالله يشمل الرضا بأمرين:

الأول: الرضا بأحكام الله وقضائه الشرعي والديني.

وهو الالتزام بما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال، سواء كانت ظاهرة أو باطنة.

فكل ما شرعه الله لعباده، وما أمرهم به أو نهاهم عنه في كتابه الكريم، وعلى لسان رسوله محمد ﷺ، هو قضاءٌ شرعيٌ وأمرٌ إلهي.

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٨/ ١٩٠):

قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة التوبة: ٥٩]. وَذِكْرُ الرَّسُولِ هُنَا يُبَيِّنُ أَنَّ الْإِيتَاءَ هُوَ الْإِيتَاءُ الدِّينِيُّ الشَّرْعِيُّ لَا الْكَوْنِيُّ الْقَدَرِيُّ. اهـ

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [سورة الحشر: ٧].

وفي حديث العباس المتقدم ذكره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا**».

ففي هذا الحديث تأكيدٌ على أنَّ تحقيق طعم الإيمان الحق يستلزم الرضا التام بالله تعالى ربًا ومعبودًا، وبالإسلام منهجًا وحكمًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا.

فالرضا هنا ليس مجرد موافقة لفظية، بل هو قبول قلبي وعقلي يتبعه التزام عملي؛ فالمؤمن الذي يذوق طعم الإيمان يحس بلذةٍ إيمانية عميقة نتيجة اطمئنانه وتسليمه الكامل لأمر الله ونهيه.

وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، رضيت بالله ربًا، وبمحمد رسولًا، وبالإسلام دينًا، غفر له ذنبه»**.

فهذا الحديث يدل على فضل هذه الكلمات التي تغرس في القلب الرضا بالله ودينه ورسوله، حيث ينال العبد مغفرة الذنوب بمجرد صدق اعترافه بهذه الأركان الثلاثة، مما يعزز مكانة هذا الرضا في قلب المسلم ومدى تأثيره في مغفرة الله وعفوه.

فالرضا بالله ربًا يشمل التصديق بربوبيته المطلقة، والرضا بالإسلام دينًا يتضمن الاتباع الكامل لأحكامه وتشريعاته، والرضا بمحمد ﷺ رسولًا يعني الإقرار برسالته وطاعته فيما أمر ونهى.

فالمؤمن الذي يرضى بهذه الأمور الثلاثة يكون قد بلغ قمة التوحيد ونال أسمى معاني الإيمان، حيث يحقق التسليم الكامل لله تعالى، ويعيش حياته في عبادة خالصة لله، متبعًا ما جاء به رسول الله ﷺ، ومحافظًا على منهج الإسلام في كل شؤون حياته، ابتغاء لمرضاة الله تعالى.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين (ص: ٣٧):

الأحكام ثلاثة: "حكم شرعي ديني"، فهذا حقه أن يُتلقَّى بالمسالمة والتسليم وترك المنازعة، بل الانقياد المحض. وهذا تسليم العبودية المحضة، فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد، ولا يرى إلى خلافه سبيلاً البتة، وإنَّما هو الانقياد المحض والتسليم والإذعان والقبول. فإذا تلقَّى بهذا التسليم والمسالمة إقرارًا وتصديقًا بقي هناك انقياد آخر وتسليم آخر له إرادةً وتنفيذًا وعملاً، فلا تكون له شهوةٌ تنازعُ مرادَ اللَّهِ من تنفيذ حكمه، كما لم تكن له شبهةٌ تُعارضُ إيمانَه به وإقرارَه.

وهذا حقيقة القلب السليم الذي سلم من شبهة تعارض الحقَّ، وشهوةٍ تعارض الأمر، فلا استمتع بخلاقه كما استمتع به الذين يتَّبعون الشهوات، ولا خاض في الباطل خوضَ الذين يتبعون الشبهات، بل اندرج خلاقُه تحت الأمر، واضمحلَّ خوضُه في معرفته بالحقِّ؛ فاطمأنَّ إلى اللَّه معرفةً به، ومحبةً له، وعلمًا بأمره، وإرادةً لمرضاته، فهذا حقُّ الحكم الديني. اهـ

الثاني: الرضا بقضاء الله وحكمه الكوني القدري

وهذا الرضا يتضمنه الرضا بالله ربًا، فالرضا بالله ربًا متضمن للرضا بالقضاء والقدر، ومستلزم له؛ لأنه إذا رضي بالله ربًا: رضي بأمره ونهيه، ويستلزم ذلك أن يرضى بما يقسمه له ويقدره عليه، ويعطيه إياه، ويمنعه عنه، فمن لم يرض بذلك كله لم يرض بالله ربًا من جميع الوجوه.

قال ابن القيم في كتابه الفوائد (صـ: ٩١):

"**فَائِدَة جليلة**" قَوْله تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾، وَقَوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [سورة النساء: ١٩].

فالآية الأولى في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية، والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية. فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشيةً على نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده، ويحب الموادعة والمتاركة، وهذا المحبوب شر له في معاشه ومعاده. وكذلك يكره المرأة لوصف من أوصافها وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه. ويحب المرأة لوصف من أوصافها وله في إمساكها شر كثير لا يعرفه. فالإنسان كما وصفه به خالقه ظلوم جهول، فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضرّه وينفعه ميله وحبه ونفرته وبغضه، بل المعيار على ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه. فأنفع الأشياء له على الإطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه،

وأضر الأشياء عليه على الإطلاق معصيته بظاهره وباطنه، فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصا له فكل ما يجري عليه مما يكره يكون خيرا له، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته فكل ما هو فيه من محبوب هو شر له.

فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته، علم يقينا أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب.

فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أن عامة مضارها وأسباب هلكتها في محبوباتها.

فانظر إلى غارس جنة من الجنات خبير بالفلاحة غرس جنة وتعاهدها بالسقي والإصلاح حتى أثمرت أشجارها، فأقبل عليها يفصل أوصالها ويقطع أغصانها لعلمه أنها لو خليّت على حالها لم تطب ثمرتها، فيطعمها من شجرة طيبة الثمرة، حتى إذا والتحمت بها واتحدت وأعطت ثمرتها أقبل يقلمها ويقطع أغصانها الضعيفة التي تذهب قوتها، ويذيقها ألم القطع والحديد لمصلحتها وكمالها، لتصلح ثمرتها أن تكون بحضرة الملوك. ثم لا يدعها ودواعي طبعها من الشرب كل وقت، بل يعطشها وقتا ويسقيها وقتا، ولا يترك الماء عليها دائما وإن كان ذلك أنضر لورقها وأسرع لنباتها. ثم يعمد إلى تلك الزينة التي زينت بها من الأوراق فيلقي عنها كثيرا منها، لأن تلك الزينة تحول بين ثمرتها وبين كمال نضجها واستوائها كما في شجر العنب ونحوه. فهو يقطع أعضاءها بالحديد، ويلقي عنها كثيرا من زينتها،

وذلك عين مصلحتها. فلو أنها ذات تمييز وإدراك كالحيوان، لتوهمت أن ذلك إفساد لها وإضرار بها، وإنما هو عين مصلحتها.

ومتى ظفر العبد بهذه المعرفة سكن في الدنيا قبل الآخرة في جنة لا يشبه نعيمها إلا نعيم جنة الآخرة، فإنه لا يزال راضيا عن ربه، والرضا جنة الدنيا ومستراح العارفين، فإنه طيب النفس بما يجري عليها من المقادير التي هي عين اختيار الله له، وطمأنينتها إلى أحكامه الدينية، وهذا هو الرضا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا. وما ذاق طعم الإيمان من لم يحصل له ذلك. اهـ

وهذا كلام فصلٌ لمن تأمله ووقف عنده وفتح الله قلبه لفهمه ولا مزيد عليه.

الخاتمـــــة

بعد رحلة ليست بالقليلة من التأمل في جوهر حلاوة الإيمان، وكيف كان السلف الصالح يعيشون تلك اللحظات الطيبة ويشعرون بثمارها في قلوبهم وأعمالهم، نكون إلى آخر هذه الرسالة التي نرجو من الله أن نكون قد وفِّقنا من طرحها وترتيبها، وأن ينفع بها من شاء من خلقه، والبركة من الله.

ونسأل الله أن يجعلنا ممن ينالون هذه الحلاوة ويعيشون في أنوارها حتى نلقاه.

فالإيمان هو غذاء الأرواح، وعندما يذوق العبد حلاوته، تفيض على حياته أنوار من الرحمة والسكينة، ليصبح قلبه في سلام داخلي، مهما كانت تحديات الدنيا وأوجاعها.

ولقد عرضنا في هذه الرسالة سبعَ سبلٍ رئيسية يمكن من خلالها الوصول إلى حلاوة الإيمان بحول الله وقوته؟

وهذه السبل بمثابة مفاتيح تفتح لنا أبواب النور والسرور، إذا ما أقبلنا عليها بصدق وإخلاص، فبقدر ما نبذل من جهد في تطبيقها، بقدر ما نقترب من الله تعالى وننعم بحلاوة الإيمان.

فهي بمثابة بذور نزرعها في قلوبنا، فإذا رويناها بماء الإخلاص والصبر، أثمرت شجرة طيبة وارفة الظلال.

أول هذه السبل هو معرفة الله تعالى، فكلما تعمقنا في فهم صفاته وأسمائه، كلما اقتربنا أكثر من حلاوة الإيمان، فمعرفة الله هي أساس الإيمان.

ثم يأتي الافتقار والانكسار لله، وهو شعور يعكس تواضع العبد واحتياجه الكامل والمستمر لرحمة الله وعونه، فلا يتذوق العبد حلاوة الإيمان إلا إذا شعر بفقره إلى الله في كل لحظة.

بعد ذلك، مراجعة الإخلاص في أعمالنا، والتأكد من أن نياتنا خالصة لوجه الله تعالى، إذ إن الإخلاص هو مفتاح القبول في جميع الأعمال.

كما أن العناية بالنوافل تعد من الوسائل المهمة، لأنها تزيد من تقربنا إلى الله وتكمل ما نقص من فرائضنا، وهي من أصدق الوسائل لنيل رضا الله وزيادة الإيمان.

ولا بد من المسارعة إلى إزالة غيوم القلب، بالتوبة النصوح من الذنوب والمعاصي التي قد تلوثه وتمنع صفاءه، فتعيق تدفق الإيمان فيه. فتنقية القلب من هذه الغيوم تجعلّه أكثر استعدادًا للاستجابة لنداء الإيمان وتفتح أمامه أبواب الرحمة.

أما الإكثار من ذكر الله تعالى، فهو من أعظم السبل التي تعزز حلاوة الإيمان، حيث يملأ القلب نورًا وطمأنينة، ويقرب العبد من ربه.

وأخيرًا، يأتي الرضا بالله، الذي يُعتبر من أعظم تجليات الإيمان. فهو الذي يملأ القلب بالسكينة والطمأنينة، ويمنحنا القدرة على مواجهة تحديات الحياة بثقة وراحة، راضين بما قدَّره الله لنا في هذه الحياة الدنيا.

فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا العون في السير على هذه السبل، وأن يملأ قلوبنا نورًا يهدي دروبنا ويضيء لنا الطريق.

ونسأله سبحانه أن يجعلنا من عباده الذين يحبهم ويحبونه، ومن الذين يذوقون حلاوة الإيمان وينعمون بالقرب منه سبحانه.

ونسأله سبحانه أن يثبتنا على الحق حتى نلقاه، وأن يجعلنا من أهل السعادة في الدنيا والآخرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

كتبه

أبو عبد الرحمن خليل بن عبد الله بن أحمد الحمادي

غفر له ولوالديه

كان الفراغ من كتابته ليلة الخميس الثاني عشر من شهر جمادى الأولى لسنة ستٍ وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة

فهرس الموضوعات

مقدمة ٣
المبحث الأول: حلاوة الإيمان ٧
المبحث الثاني: معنى حلاوة الإيمان ١٣
المبحث الثالث: حلاوة الإيمان بالتلذذ بالطاعات ١٧
فصل: في حال نبينا مع الصلاة ١٩
فصل: في حال السلف مع الصلاة: ٢١
فصل: في حال السلف مع الطاعات ٢٨
المبحث الرابع: حلاوة الإيمان في ترك الذنوب والمعاصي ٣٩
المبحث الخامس: حلاوة الإيمان في تحمل المشاق في سبيل الله ٤٢
المبحث السادس: تفاوت المؤمنين في حلاوة الإيمان ٦٤
المبحث السابع: الأدوية التي يُتحصَّل بها حلاوة الإيمان ٦٨
العلاج الأول: معرفة الله تعالى ٧٢
العلاج الثاني: الافتقار والانكسار لله سبحانه وتعالى ٩٨
العلاج الثالث: مراجعة الإخلاص ١١٠
العلاج الرابع: العناية بنوافل العبادات ١٢٦
العلاج الخامس: الإسراع بإزالة غيوم القلب ١٣٣
العلاج السادس: الإكثار مِن ذكر الله ١٤٥
العلاج السابع: الرضا بالله تعالى ١٥٣
الخاتمـــــة ١٦١
فهرس الموضوعات ١٦٤